

نبع الآداب والثقافة المعاصرة



دماغي كده!

(1) فى السياسة

د. أحمد خالد توفيق



نبع الآداب والثقافة المعاصرة

سلسلة 1
مقالات

د. أحمد خالد توفيق

لعلك قرأت بعض هذه المقالات ، ولعلك قرأتها كلها . لكن اجتماعها فى كتاب واحد يعطيك نظرة أشمل ، وأعمق .

قد يروق لك هذا الكتاب ، وقد يبرهن على أننى حسن الظن فى نفسى أكثر من اللازم ، ولكنى فى جميع الأحوال أعدك بشيء واحد : هذه مقالات صادقة تمامًا ؛ لم أكتبها طلبًا للمادة ، أو نفاقًا لمسئول ، أو دفاعًا عن جهة ما ..

عندما حاول بعض المحيطين بعبد الناصر أن يوغروا صدره على العظيم (أحمد بهاء الدين) ، قال لهم : اتركوه ؛ نحن راقبناه ، وندرك أنه لا علاقة له بأحد .. هذا رجل (دماغه كده) ..

(دماغى كده) .. عنوان مناسب جدًا لهذه المقالات .. فقط هناك شخص واحد كتبت وهو فى ذهنى ، ويهمنى بالطبع رضاه والفوز باحترامه - إن لم يكن بحبه - ويغرينى بممارسة تلك اللعبة المعقدة ؛ بين قول ما أريد قوله ، وكتابة ما يريد قراءته ؛ فلا أتورط فى أسلوب (ما يطلبه المستمعون) ، أو أمارس الاستفزاز المجانى لمجرد التميز .. وهذا الشخص هو القادر على جعلى أتردد ، أو أراجع دماغى هذه .. وهو الوحيد الذى أدين له بكل شيء : القارئ .

الثمن فى مصر 10 جـ
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم





دماغى كــده

د. أحمد خالد توفيق

لأن دماغى كده

راق لى جدًا رأى سيد الرواية (نجيب محفوظ) عندما سأله حشد من الأدباء فى مجلة الهلال عن سبب عدم كتابته المقال ، فقال : « شاء الله أن يجعلنى من أصحاب الانفعالات لا أصحاب الآراء » . وفى موضع آخر قال إن فن الرواية مراوغ يسمح لك بقول ما تريد دون أن يُمسك عليك رأى معين ، فهو كالكرة التى رآها فلاسفة الإغريق أكمل الأشكال الهندسية لأنه ليس لها طرف يمكن الإمساك به .

ظللت أتبنى هذا الرأى كثيرًا ، وكانت الصحفية اللامعة والصديقة العزيزة (أمنية فهمى) تتألق وقتها فى جريدة الدستور الإصدار الأول ، فاقترحتْ علىّ أن أكتب المقال معهم ، لكنى اعتذرت لأننى وجدت أن كُتّاب الدستور يقولون بالضبط ما أريد قوله وبشكل أفضل .. لماذا يجب أن يصير الجميع طهاة ؟.. لماذا لا يكتفى البعض بتذوق الطعام الجيد ؟..

عندما انتقلت (أمنية) إلى جريدة التجمع كررت طلبها ، وهنا خطر لى أن عندى أشياء لم يقولوها أو على الأقل لم اقرأها لهم ، وأنه من الممكن ألا تكون (هيكل) أو (هويدى) أو (محمود عوض) أو د . (جلال أمين) ، وبرغم هذا يمكنك التعبير عن رأيك . من ثم كتبت على استحياء المقال الأول .. ثم الثانى فالثالث .. وكنت على استعداد تام للتوقف فى أية لحظة ، لكنى ذهبت لزيارة مقر جريدة التجمع لأجد مجموعة ظريفة ودودة من المفكرين ، واتضح أن مقر هذه الجريدة غرفة عتيقة متداعية بالطابق العلوى من حزب التجمع تطل على سطح جميل حميم تغمره الشمس ، ووجدت أن أكثرهم يعمل متطوعًا وبحماس غريب تحت قيادة الأستاذ

(مدحت الزاهد) . أعتقد أنهم جميعًا كانوا يحبون ما يعملون ، ولربما ستبقى هذه الأيام فى ذاكرتهم باعتبارها من أجمل أيامهم . الأجمل أنهم رحبوا بى فلا أعرف بالضبط ما قالته (أمنية) لهم .. لكنهم كانوا سيتصرفون بالطريقة نفسها لو جاء (بوب ودوارد) للكتابة معهم !!

كتبت لجريدة التجمع فترة طويلة بلا انتظام ، ثم توقفت الجريدة للأسف لأسباب يطول شرحها ، وولد الدستور الجديد لأكتب له بلا انتظام كذلك . ثم ولد الدستور اليومى ليطلب منى الصديق العزيز (إبراهيم عيسى) مقالاً يوميًا ، لكنى صحت فى ذعر : « كله إلا هذا !.. أريد بعض الحرية وإلا اضطررت لاختلاق الأفكار اختلاقًا ! » هكذا وافق على أن أكتب مقالاً أسبوعيًا فى حدود ألف كلمة .. وهو ما حرصت على الالتزام به ، ما عدا بعض أسابيع الانشغال أو النضوب أو الإرهاق.

ثم جاء موقع (بص وطل) على الإنترنت .. انضممت له متأخرًا لارتباطى الحصرى بموقع آخر ، لكنى بدأت أكتب له بشبه انتظام . النتيجة هى أن عددًا هائلاً من المقالات قد تراكم عندى مع الوقت ، وهنا شعرت بالهباء .. كتبت كثيرًا لكنه تبدد على الأرجح فى وسائل سريعة البخر .. الإنترنت وسيلة طيارة لا يبقى فيها شىء فى موضعه أكثر من عامين .. الصحف تظل وسيلة ثابتة حتى يُلف فيها أول رغيف أو تُستعمل لتلميع أول نافذة ..

هكذا خطر لى أن أجمع ما كتبت بين دفتى كتاب ، ليكون شيئًا ثابتًا يمكن الرجوع إليه . مارست انتقائية عالية فى اختيار المقالات لأن عددها كبير فعلاً (لم أعرف أننى ثرثار كالآخرين إلا فى تلك اللحظة) ونشر كل

شىء يجعل هذا الكتاب فى حجم الموسوعة البريطانية ، ولأن أحداثًا كثيرة لم تعد تهم أحدًا ، وبعض الآراء وجدتها فيما بعد سخيفة أو ساذجة . حاولت كذلك تصنيف المقالات إلى أقسام :

هناك مقالات لها طابع الذكريات .. هناك مقالات تزعم أنها تفهم فى السياسة .. هناك مقالات تلعب بالضبط فى دائرة (ماذا حدث للمصريين) التى كتب فيها د . (جلال أمين) كتابًا بالغ الأهمية ، وكتب فيها (أسامة غريب) كتابًا فائق الإمتاع قرأه الجميع تقريبًا هو (مصر ليست أمى دى مرات أبويا) .. هناك مقالات ذات طابع نقدى فنى .. وهكذا ..

لعلك قرأت بعض هذه المقالات ، ولعلك قرأتها كلها . لكن اجتماعها فى كتاب واحد يعطيك نظرة أشمل وأعمق . قد يبرهن هذا الكتاب على أن العزيزة (أمنية فهمى) بعيدة النظر ، أو يبرهن على أنها حسنة النية أكثر من اللازم ، لكنى فى جميع الأحوال أعدك بشىء واحد : هذه مقالات صادقة تمامًا لم أكتبها طلبًا للمادة أو نفاقًا لمسئول أو دفاعًا عن جهة ما ..

عندما حاول بعض المحيطين بعبد الناصر أن يوغروا صدره على العظيم (أحمد بهاء الدين) ، قال لهم : أتركوه .. نحن راقبناه وندرك أنه لا علاقة له بأحد .. هذا رجل (دماغه كده) ..

(دماغه كده) .. هذا هو شعار هذه المقالات .. فقط هناك شخص واحد كتبت وهو فى ذهنى ، ويهمنى بالطبع رضاه والفوز باحترامه إن لم يكن بحبه ، وهو القادر على جعلى أتردد أو أراجع دماغى هذه .. وهو الوحيد الذى أدين له بكل شىء : القارئ .....

د . أحمد خالد توفيق 2008

دماغى كده

فى السياسـة

جمهور واغش

يجلس الناقد السينمائى الجميل رءوف توفيق فى قاعة السينما يحاول أن يفهم شيئًا من الفيلم ، لكنه يفاجأ بأن الصوت عال جدًا لدرجة أن الجمهور لا يسمع حرفًا من الحوار .. هناك حيوان ما قد فتح السماعات إلى أقصى طاقة لها ، وبالتالى تحولت قاعة السينما إلى معتقل نازى أو جحيم دانتى أو حظيرة مواش حسب التشبيه الذى يروق لك ، وبما أنه رجل مهذب فقد طلب من هذا العامل أو ذاك تخفيض الصوت بلا جدوى ، من ثم اتجه إلى مدير السينما فى مكتبه ليفاجأ بحلوف بدين جالسًا يعد كومة من أوراق المال .. عرفه بشخصه ونقل له شكواه ، لكن المدير رفض فى كبرياء أن يخفض ارتفاع الصوت ، وقال دون أن ينظر له : « يا أستاذ سيبك منهم .. ده جمهور واغش ! »

كان هذا فى أوائل السبعينيات ، وكانت تلك أول مرة يسمع فيها الناقد الكبير هذا المصطلح ، فلما سأل عرف أنه مصطلح سوقى معناه (تحت المستوى) ، وهو ما يشبه مصطلح (بيئة) الذى نستعمله اليوم .

لم أستطع قط نسيان هذه القصة ، وإن كنت أراهن على أن رءوف توفيق نفسه لا يذكرها. ما الذى كان يمكن أن يحدث لو خفض المدير ارتفاع الصوت ؟.. هذا الإصرار يعكس بلا شك رغبة لا نهائية فى الإيذاء والإهانة والاستعلاء .. هذا جمهور واغش فليُعامل كما يُعامل الجمهور الواغش إذن ..

أتذكر هذه القصة وقد تحولت حياتنا بالكامل إلى قاعة سينما يصر صاحبها على أننا جمهور واغش ، ويصر على ألا يخفض صوت السماعات

مع أن هذا لن يكلفه شيئًا . رءوف توفيق يمثل الصحافة ويمثل المثقفين الذين يسودون صفحات الجرائد والمجلات كل يوم فلا يصغى لهم أحد ..

تكلم عن الغلاء .. تكلم عن انقطاع المياه .. تكلم عن التعذيب .. تكلم عن الفساد. تكلم عن تدهور التعليم والخدمات .. تكلم عن انهيار الريادة الإعلامية المزعومة .. تكلم كما تريد فأنت جمهور واغش ولن يتعب أحد نفسه بأن يخفض صوت السماعات من أجلك .. من الذى أصر على تغيير عبارة (الشرطة فى خدمة الشعب) إلى (الشعب والشرطة فى خدمة الوطن) ؟.. لماذا لا تترك هذا الشعار يا أخى حتى لو كان مجرد شعار ، وما أكثر الشعارات الجوفاء فى حياتنا ؟ ، لكن لا .. لا يجب أن تنسى لحظة واحدة أنك جمهور واغش .. هل تجرؤ على أن تتصور لحظة أن الشرطة فى خدمتك يا جربوع ؟..

ما الذى جعلنا جمهورًا واغشًا ؛ أو لماذا يعتبروننا كذلك ؟.. على قدر علمى نحن أولاد ناس ، ومعظمنا يستحم (فى المحافظات التى ما زال الماء يصلها) ، ومعظمنا حاصل على الإعدادية والله العظيم . هذا التعامل الخشن جعل الناس يتصرفون بالمثل ولا يثقون بالحكومة . ولهذا تتداعى إلى ذهنى لفظة (أومرتا Omertà) . (أومرتا) معناها مؤامرة الصمت ، وهو سلوك شعبى معتاد لدى الصقليين والإيطاليين الذين يتعاملون مع عصابات المافيا .. هنا يصير من الممنوع على المواطنين أن يتعاملوا مع أية جهة حكومية كانت . يُقتل أخوك أو جارك لا سمح الله لكنك لا تبلغ الشرطة حتى لو عرفت القاتل. كل الشهود الذين رأوا الجريمة لم يروا شيئًا !.. يقبضون على القاتل فينكر أن المافيا كلفته بأى شىء ولا ينطق بحرف . ينسحب هذا على أى تعامل حكومى ؛ لأن الناس هناك كونوا حكومتهم الخاصة التى تديرها المافيا .

كنت على الطريق السريع مع صديق لى ، عندما رأيت تلك العلامات المعروفة التى تنذر بوجود رادار فى طريقنا . إنها الإشارات المتقطعة للنور من السيارات القادمة فى الاتجاه المقابل. على الفور خفض صاحبى سرعة سيارته إلى ستين ، وتحول الطريق السريع إلى صف من سيارات مهذبة تمشى فى سلام كأننا جوقة من الملائكة فى موكب سماوى ..

ما حدث على الطريق السريع هو مؤامرة شعبية كاملة على طريقة أومرتا لخداع الرادار وخداع الحكومة. مؤامرة اتفق عليها مئات من سائقى السيارات .. من يلتزم بها جدع ومن يخرج عنها نذل ابن نذل وخائن يعمل مع الأعداء. برغم أن الحد من السرعات المجنونة أمر حميد ومن صميم عمل الدولة ، فإن هؤلاء يعتبرون الحكومة شرًا من السماء جاء ليخرب بيتك وييتم عيالك ، وعلينا أن نتكاتف لمنعه ، وأن السائق الذى سوف يظفرون به ليس سوى صاحب عيال غلبان وأرزقى .. عامة يؤمن المواطن المصرى أن الدولة تأخذ منه أضعاف ما تعطيه ، وهو قد يجد غضاضة فى سلب حق بواب العمارة لكنه لا يفوت فرصة لخداع الدولة التى لا يشعر بأنها تقدم له أية خدمات.

عرفت عريسين شابين عاكفين على تشطيب عش الزوجية قبل زواجهما بشهر ، فكانا بعد رحيل الصنايعية وقبل مغادرة الشقة يتأكدان من أن الأنوار كلها مضاءة ، لدرجة أن العريس عاد ذات مرة من الشارع ؛ لأنه نسى أن يضىء الأنوار . سألته عن سبب هذا الحرص وقد حسبته تقليدًا شعبيًا لمنع العفاريت أو الحسد أو شىء كهذا . قال لى فى ذكاء : « لأن هناك شهر إعفاء من دفع رسوم الكهرباء مع العدادات الجديدة ؛ لهذا نحاول أن نكلف الحكومة بعض المال ! »

مبالغة ؟.. أقسم بالله العظيم أن هذا الموقف حدث حرفيًا ، ولا داعى بالطبع لوصف ملامح وجه العريس عندما عرف فيما بعد أن موضوع الإعفاء هذا إشاعة لا أساس لها من الصحة !

على قدر علمى عسير أن يحدث هذا الموقف فى أى بلد من بلدان العالم ، وهو يعكس قرونًا من انعدام الثقة بين الشعب والحكومة. المشكلة أن هذا الوضع يتفاقم أكثر مع ذلك الإصرار الجهنمى على اعتبارك جمهورًا واغشًا . لا يمكنك أن تعرف أى شيء على الإطلاق .. ليس من حقك أن تفهم .. رأيك لا قيمة له .. لا تبيعوا القطاع العام لكنه يُباع .. لا توقعوا الكويز فتُوقع .. لا تذبحوا القضاة فهى جريمة لا تغتفر لكنهم يُذبحون .. استقبلوا وزير الخارجية الفلسطيني المنتخب لكن لا أحد يستقبله .. نصح المفكرون بأهمية وجود خطوط دبلوماسية قوية مع إيران فلم يبال أحد .. حذر الجميع من خطر تعويم الجنيه فعوموه ..

لقد صفق الناس فى قاعة السينما التى كانت تعرض فيلم (عمارة يعقوبيان) عندما سقط ضابط أمن الدولة مضرجًا بدمه . كم منهم صفق لأنه سفاح سادى عذب الفتى واغتصبه ، وكم منهم صفق لأنه يمثل الحكومة التى تزدرينا ؟.. إجابة هذا السؤال تحدد مستقبل مصر !

الدور دائم الاخضرار

كتاب قديم مصفر الأوراق ممزقها وجدته فى مكتبة صديقى هاوى الشطرنج . كنت فى سن المراهقة ولم أسمع قط عن وجود خطط للعبة الشطرنج ، ولا هذه الرموز العجيبة على غرار (ب 4 م ـ ح 3 فو ـ بو X بم) .. (هو مش لعب وخلاص ؟) ، لكنى ذهلت عندما وجدت عددًا من الأدوار البارعة جدًا التى خلدها التاريخ ، وكان لكل دور اسم . من بين هذه الأدوار دور عجيب أطلقوا عليه اسم (الدور دائم الاخضرار) ، وقد لعب فى النمسا فى يوم ما من القرن التاسع عشر. فى هذا الدور يلعب الأبيض بسلبية غريبة ، تاركًا قطعه ليتسلى عليها الأسود. الأسود يأكل الطابيتين .. الوزير .. الفيلين .. إلخ .. موقف الأبيض يسوء بلا انقطاع ، بينما ملك الأسود يقف مزهوًا بين قطعه .. هنا ينقل الأبيض فرسًا .. القطعة الوحيدة الباقية له .. كش مات .. ملك الأسود المحاط بحاشيته أدرك فجأة أنه فى حصار لا فكاك منه ، وأن حفاظه على قطعه جعله عاجزًا عن الحركة . لا تدرك مدى خطورة المأزق إلا عندما تبتعد عن الرقعة ، وعندها تسلم بالعبقرية الأستاذية للاعب الأبيض.

فكرت فى هذا الدور عندما كنت أتابع نشرة الأخبار بما تنقله من أنباء (زى الطين) لمسمعى . ما الذى حدث ؟.. للحظات كثيرة حسبنا أننا نربح وأننا نتقدم ، لكن تأتى اللحظة التى تبتعد فيها عن الرقعة فتفهم سوء الموقف .

عندما تبتعد عن الرقعة تدرك أن هناك حقائق ولدت على الأرض ولم تفطن لها من قبل .. بوش والجيش الأمريكى يلاقون الأمرين على أرض

العراق ، لكن هل بوش يخسر المعركة فعلاً ؟.. هل نكسبها فعلاً ؟.. الغرض من الحرب كان التخلص من صدام ، وتدمير العراق ، والسيطرة على البترول . لقد تم التخلص من صدام ، ولا يوجد أى شك اليوم فى أن العراق عاد إلى العصر الحجرى ، والعراقيون يتساقطون كالدجاج وتغرق دماؤهم الشوارع كل يوم . عبارة (خمسون جثة مقطوعة الرأس مقيدة اليدين عليها آثار تعذيب) صارت جزءًا أساسيًا من كل نشرة أخبار ، ولم تعد تسترعى الانتباه على الإطلاق. والمشكلة أنك لا تعرف أبدًا كيف الخروج من هذه الورطة .. هذا وضع مرشح للأبدية .. وفى اللحظة المناسبة سيتراجع الجيش الأمريكى ليسيطر على منابع النفط وبالتالى ينتهى مسلسل خسائره . لو كانت أرقام خسائر الجيش الأمريكى التى يعلنها حقيقية فهى مصيبة ، ومعناها أن العراق أكثر الأماكن أمنًا فى العالم بالنسبة للغزاة ، ولو كانت زائفة فقد استطاع بوش وجنرالاته إخفاءها على كل حال. لا أحد فى أمريكا يصدق أن يتم تزوير أعداد القتلى ، وقد أرسلت خطابًا للمخرج المشاغب مايكل مور عبر موقعه على الإنترنت أقترح فيه أن يكون بوش كذابًا بصدد أعداد القتلى الأمريكيين ، فرد علىَّ مور فى حزم بخطاب من كلمة واحدة : مستحيل. هو يعشق التشهير ببوش لكنه لا يصدق هذه الدرجة من القذارة. هكذا مهما كان عدد القتلى فقد تولى بوش فترة رئاسة ثانية .. اجتاز دغل الفضائح ، وتخلص من معارضيه ولم يجر معه أى تحقيق عن أى شىء ، ونفذ ما أراده بالضبط .

وماذا عن فلسطين ؟.. كنا فى الانتفاضة الثانية والحماس يعمى العيون ، والانفجارات تدوى فى تل أبيب . شارون الأحمق يريد بناء سور عنصرى واق ويبدأ التنفيذ فعلاً برغم الإدانة الدولية . يومها قال محمد حسنين هيكل :

« أشعر أن القضية الفلسطينية تتلاشى فلم يعد منها سوى بضعة جيوب » .. هيكل من المفكرين القلائل الذين يجيدون فن الابتعاد عن الرقعة ليروها أفضل .. الآن ابتعد أنت أيضًا عن الرقعة لتدرك أن السور الواقى قد نجح فى منع الهجمات فعلاً ، وأن حماس وفتح يقتتلان فى الشوارع ، وهو ألعن كوابيسك .. الكابوس الذى لم تجسر على التفكير فيه على الإطلاق من قبل. محاولات التسوية تمضى قدمًا نحو تدبير أية صحراء يُحشَر فيها الفلسطينيون لتنتهى القضية سريعًا .

عندما يتكلم هيكل عن الخطة (جاما) تجد بين أوراقه مذكرة ـ منذ خمسينيات القرن الماضى ـ كتبها إيزنهاور ، يقترح فيها إزاحة ناصر ومصر المشاغبة عن قيادة العالم العربى ، واتخاذ زعيم روحى هو الملك سعود يتولى قيادة الأمة . تكلم عن الريادة كما تريد لكن من يقود العالم العربى اليوم ؟.. ما الدولة التى يذكر اسمها دومًا فى المقدمة قبل مصر ؟.. متى صارت مصر مرهقة مكبلة غارقة فى مشاكلها الاقتصادية والسياسية فلا وقت عندها ولا بال رائقًا للعب دور قيادى ؟. هذه أشياء تمت بالتدريج ولا نفطن لها إلا عندما نبتعد عن الرقعة أكثر. عندها تدرك أن الأسود يخسر فعلاً ، وأن الأبيض ينفذ كل ما أراد .

منذ نحو عشرة أعوام ابتعد هيكل مرة أخرى عن الرقعة ، وكان الموضوع يتعلق بمؤتمر دولى لمناقشة مشكلة الأقليات فى مصر . يومها كتب هيكل فى إحدى الصحف ما معناه : « تكرار الكلام عن الأقليات يشبه قطرات الماء التى تسقط بلا هوادة على الصخر. بعد قليل يتكون خط باهت .. ثم يزداد عمق الخط فترى أخدودًا صغيرًا يزداد عمقًا ، ويستمر

تساقط القطرات فيتكون شرخ لا شك فيه يفصل بين صخـرة وأخرى ».
وما زال المقال مقصوصًا عندى . كان الوقت مبكرًا جدًا ولم نكن نسمع عن حوادث فتنة طائفية إلا فيما ندر لعل أهمها كان حادث الكشح . ثم بدأت القصص تتوالى .. قضية الراهب المشلوح .. قضية الزوجة التى أسلمت .. مشكلة شريط الفيديو فى الإسكندرية .. اعتداء على كنائس .. أحداث بنها .. الدخيلة .. أقباط المهجر ومايكل منير .. احتقان يتزايد بين الطرفين ، وشعور لدى كل طرف أنه يأخذ الجزء الأقل من الكعكة أو لا يأخذ أى شيء على الإطلاق . قارئة قبطية قبلت أن تتكلم معى بصراحة تقول فى جزء صغير جدًا من خطابها : « أنا عمومًا مشكلتى مش مع الحكومة أد ما هى فى الشارع ، لما أركب تاكسى والسواق مايردش عليا السلام ويبقى عنده استعداد يتعارك معايا لو اتنفست ويفضل يزغر لى فى المراية . مشكلتى مع التعليقات فى الشارع (يا مسيحية) و (هما دول اللى مبوظين البلد) .. » فى المقابل كلنا يعرف الساكن المسيحى الذى يتشاجر مع صاحب البيت على الإيجار فيشكوه فى أمن الدولة باعتباره متطرفًا. لا تنكر هذا أو ذاك من فضلك ، فالمثالان موجودان ويصرخان فى وجوهنا كل يوم . كيف وصلنا لهذا وكيف لم نر الخط وهو يتزايد عمقًا ؟.. وكيف نمنعه من أن يتحول إلى شرخ حقيقى عميق ؟.. أرى يد لاعب الشطرنج الخفى تنقل هذه النقلة البارعة ، واللاعب يعرف جيدًا أن السبيل إلى إضعاف مصر يبدأ بتفكيك نسيج الوحدة الوطنية الحقيقية وليست الإعلامية .

لا أؤمن بنظرية المؤامرة وكل الكتب السخيفة عن الأحجار على رقعة الشطرنج التى يحركها الكرادلة والحاخامات المتآمرون فى ضوء المشاعل السباعية ، لكنى أؤمن يقينًا أن هناك مؤسسات صنع قرار وخزانات تفكير وخبراء استراتيجيين يخططون ونحن لا نفهم .. أؤمن بأن هناك لاعب شطرنج عبقريًا يتوقع كل هذه النقلات ، وهو ينتظر اللحظة المناسبة كى يحرك فرسه .. كش مات يا عرب .. انتهى الدور دائم الاخضرار !

عن البنيوية العملياتية الفتحوية

« أعرف من يرفض حقًا .. من لون الغربة والجوع بعينيه وأعرف أمراض التخمة .. »

لماذا أتذكر هذا المقطع من شعر (مظفر النواب) الآن وفى هذه الظروف ؟ .

من الجلى أن (مظفر النواب) كان يعتمد كثيرًا على انطباعه الشخصى ، وهذا ما حدث معى بالضبط عندما كنت أشاهد شاشة الجزيرة منذ أعوام بعد ما فكت إسرائيل حصار عرفات أول مرة واجتاحت جنين يوم الجمعة 5 أبريل 2002 . كنا نحن نحترق غمًا وألمًا بعد ما رأينا الجثث مكومة فى الأكياس السوداء ، ورأينا المسعفين يلبسون الكمامات وهم يملئون شاحنة كاملة ، ورأينا الرجل الذى قضى ثلاثة أيام حبيسًا مع جثث أمه وولديه وزوجته التى دب فيها العفن ، عاجزًا عن دفنهم أو الخروج من البيت . فيما بعد رأيت موقعًا متخصصًا فى الصور المرعبة اسمه (روتن دوت كوم) فيه فصل كامل عن مذبحة جنين ، ترى فيه صورًا لا يصدقها عقل ولا يتحملها جهاز عصبى بشرى ، مع تعليق ساخر من صاحب الموقع الأمريكى يقول : « ومستر أنان يصر على أنه لم تحدث مذبحة فى جنين ! »

رأينا كل هذا ثم رأينا عرفات يتصدر المائدة بينما من حوله رجال فتح يحتفلون (بالنصر المؤزر) الذى هو فك الحصار ، كأن لهم من أمرهم شيئًا وكأن إسرائيل غير قادرة على إعادة الحصار فى أية لحظة تريد . كان هناك

جو عام من المرح أكثر مما يتحمله الموقف .. ضحكات .. قهقهة .. قفشات .. وتوقفت الكاميرا عند رجلين مكتنزين غليظى الشاربين والجسدين جالسين إلى المنضدة يتبادلان المزاح مع ذلك التعبير الفاحش الذى يوحى بأنهما يقولان نكتًا (أبيحة) ، ثم لاحظ أحدهما الكاميرا فتقلص وجهه وهمس فى أذن صاحبه كى يأخذ باله . كان انطباعى عن المشهد أن هذه وجوه تعانى (أمراض التخمة) . هناك كعكة دسمة جدًا فى الموضوع ، وهم سعداء بأنها عادت لهم بصرف النظر عن الجثث المكدسة فى أكياس . انطباع آخر شعرت به هو أن هذه ذئاب يسيطر عليها مدرب محنك يلعب بالبيضة والحجر هو (عرفات) ، لكنه لو توارى لانقضوا على كل شىء . كان وضع عرفات مع الإضاءة يوحيان نوعًا بالمسيح فى صورة العشاء الأخير الشهيرة لدافنشى ، وقلت لنفسى : إن أحد هؤلاء سيكون يهوذا .. لا أعتقد أننى أخطأت كثيرًا ؛ لأن أحدهم هو من دس له السم قطعًا ، غير أن عرفات لم يكن المسيح بالتأكيد .

فى هذا الوقت كانت هناك اتهامات عدة للعقيد جبريل الرجوب قائد الأمن الوقائى السابق فى الضفة الغربية بتسليم 8 مقاومين فلسطينيين من فصائل مختلفة لقوات الاحتلال ، منهم مقاتل من حركة فتح نفسها . وهى تهمة أنكرها بشدة وزعم أنهم تم اعتقالهم أثناء اجتياح بتونيا . قال الشهيد أحمد يس أنه تلقى مكالمة استغاثة منهم قبل اعتقالهم تؤكد أن الرجوب هو الفاعل .

هناك مقال شهير يتداوله الفلسطينيون كتبه طبيب فلسطينى اسمه إبراهيم حمامى يكشف معلومات عن محمد دحلان الذى ولد فى أسرة فقيرة ، وتنقل بين ليبيا وتونس ، ويزعم المقال أنه تم تجنيده مع الرجوب

من قبل المخابرات المركزية أثناء وجوده فى تونس . أما خطة روما فهى اتفاق يقضى بأن يحتوى دحلان كمسئول للأمن الوقائى حركة حماس . هذه هى الفترة التى أطلق عليه فيها اسم (الكولونيل الوسيم) فى الصحافة الغربية . امتلك فندقًا خمسة نجوم فى غزة ، وبدأت خلافاته مع عرفات . والمقال يوجه له عدة أسئلة مهمة : 1« ـ من أين أتى بالملايين ليصرفها على أتباعه فى فتح ؟ 2 ـ من أين له الأموال ليمتلك فندق الواحة ، وليشترى مؤخرًا أكبر وأشهر منازل غزة 3 ـ هل يستطيع أن يكشف عن مصدر ثروته المقدرة بـ 53 مليون دولار وهو القادم من عائلة معدمة؟ 4 ـ من دفع فاتورة إقامته بفندق كارلتون تاور بكامبردج ليتعلم اللغة الإنجليزية على أيدى ثلاثة من المختصين فى إحدى أكبر وأغلى الجامعات فى العالم وتحت الحراسة الأمنية ؟ »

لهذا عندما اقترحت أم العيال أن تتبرع للشعب الفلسطينى فى المصرف ، راقت لى الفكرة . ثم راجعتها مرارًا .. من قال لى إن التبرع سيصل فعلاً للفلسطينيين ؟.. يصل لأهل إيمان حجو وأهل محمد الدرة وذلك الذى حُبس ثلاثة أيام مع جثث أسرته ؟.. من يضمن لى ألا آخذ المال من قوت عيالى كى أزيد من ثروة الأخ دحلان وسواه ، وهو قطرة فى بحر على كل حال ؟

عندما يظهر جبريل الرجوب على الشاشة بصلعته وصوته الفظ ، ومصطلحاته : « البنوية العملياتية ، وترتيب البيت الفتحوى » ، لابد أن تشعر بالاختناق .. كلهم يتكلمون بهذه الطريقة وأسلوب النسب إلى الجمع ليوحوا بأنهم من كبار المناضلين ، تشعر بذات الجو القديم الذى صاحب اغتيال يوسف السباعى فى 18 فبراير من عام 1979 . ربما ترفض كامب ديفيد ومبادرة السادات لكنك كذلك ترفض من اصطلح إعلامنا

على تسميتهم (مجاهدى الميكروفونات) . ما علاقة كاتب رومانسى مثل يوسف السباعى بالقصة ؟ ، وما الإضافة التى تقدمها باغتياله (منشان القضية) ؟ . نفس جو اغتيال عصام السرطاوى فى لشبونة يوم 10 إبريل عام 1983 . أنت أدنته واعتبرته عميلاً ، لكن لماذا تقتله وهو خارج من الفندق بينما على بعد متر واحد منه يمشى السفاح بيريز فتتركه .. لماذا لا تقتل الاثنين يا أخى ؟.. لماذا لا تبدأ بعدوك ؟

لقد شاخ رجال فتح ما بعد أوسلو حقًّا .. إنه (تعب المعادن) .. لم تعد هناك علاقة بينهم وبين فتح العقائدية الثورية التى عرفناها أيام خطف الطائرات إياها .

قارن هذه العيون المنتفخة التى أغلقتها السلطة والنفوذ بالعينين الحساستين الذكيتين لخالد مشعل أو الرنتيسى أو المتحدث الرسمى لحماس . هذه عيون تشى بـ (لون الغربة والجوع) .. عيون (ترفض .. حقًّا) .

قد تختلف مع حماس كثيرًا جدًّا .. هناك ألف تَحفُّظ على فكرة خلط الدين بالسياسة والإسلام السياسى ، لكن لا تنكر لحظة أن هؤلاء قوم صادقون يؤمنون بما يفعلون وقد ضحوا بحياتهم فعلاً ، وكان سلاحهم حتى الأشهر الأخيرة موجهًا نحو هدف واحد فقط هو الهدف الصحيح . أحمد يس القائد العجوز رأينا أجزاء مخه مبعثرة على الرصيف ساعة صلاة الفجر ، والرنتيسى تمزق جسده ، وخالد مشعل مات فعلاً وعاد للحياة لأن الملك حسين لم يستطع قبول اغتياله على أرض الأردن . لا ننكر كذلك أن هناك شرفاء كثيرين فى فتح ما بعد أوسلو ، منهم على سبيل المثال الرائد سعيد الكرمى من قادة شهداء الأقصى الذى نسفه الإسرائيليون فى 14 يناير عام 2002 ..

حماس قد تم وضعها فى مصيدة ، وكان عليها أن تواجه تحدى جيفارا الشهير : الثائر الذى يجيد التفجير ودك الحصون عندما يطلب منه أن يبنى ويشيد وأن يفهم تعقيدات السياسة . جندى المدفعية الذى يطلب منه أن يتحول إلى عامل بناء . ربما كانت حماس على استعداد للتعلم وبالتأكيد كانت قادرة عليه ، لكن أحدًا لم يعطها فرصة .. تحالف العالم كله ضد تجربتها كى تفشل . وفى النهاية كانت الضباع المستفيدة فى حركة فتح على استعداد للقتال حتى الموت من أجل مكاسبها ، واشتعل الوضع فى غزة . ربما أكون عاطفيًا أكثر من اللازم ، لكننى بالفعل أرى الصراع صراعًا بين من (يرفض .. حقًا) ومن يعانى (أمراض التخمة) .

عن مكدونالد والبطة دونالد

من الخصائص المهمة فى الإمبراطورية الأمريكية كونها تقدم كما يقول الأستاذ هيكل نمطًا معيشيًا وثقافيًا بالغ الجاذبية . إنها الإمبراطورية الأولى فى التاريخ التى تستعمل هذا النوع من السلاح . وفى الماضى كان من السهل أن تمقت الإمبراطورية الرومانية بكل رموزها؛ فلم تكن كتابات ماركوس أوريليوس أو خطب بللينى الأكبر تتسرب إلى دارك ، أما اليوم فأنت تشتم الولايات المتحدة ثم تقضى الليل كله مع فيلم أمريكى شائق . يذكر أبناء جيلى أيام الحرب الباردة حينما كان الماركسيون يعدونك بجنة البروليتاريا التى ستتحقق بعد الكثير من الدم والعرق والدموع ، بينما كان الأمريكيون يقدمون لك بالفعل جنتهم الصناعية ذات اللون والطعم والرائحة ، حيث تسبح الحسناوات الشقراوات فى بحار البيبسى كولا بينما يرقص ميكى ماوس ويحلق سوبرمان فى الجو . إنه (العالم الحر) ... تلك اللفظة الأمريكية الاستعمارية التى سادت لتصف كل ما ينضوى تحت جناح الولايات المتحدة خارج الستار الحديدى ، أما ما وراء الستار الحديدى فحفنة من الجنرالات الساديين المصابين بالشذوذ الجنسى والذين يتكلمون الإنجليزية (المكسرة) ، ومواطنون لا يرغبون فى شىء إلا الفرار إلى العالم الحر .

منذ أسابيع قدمت قناة الجزيرة فيلمًا وثائقيًا بريطانيًا عن احتلال العراق ، وكان المراسل البريطانى يختبئ مع المارينز خلف دبابة بينما طلقات المقاومة تنهمر عليهم .. هنا قال أحد رجال المارينز دعابة ليزيل التوتر ، لكنها تستدعى وقفة عميقة : « تصور أننا لم نقصف قط أية مدينة فيها (ماكدونالد) ؟! » وقد اندهش المراسل البريطانى لهذه المعلومة التى

ثبت أنها حقيقية . إن ماكدونالد رمز استعمارى قوى يعنى أن هذه الدولة غير مارقة ، وله ذات ثقل القنصلية البريطانية فى الماضى .. بل إن ظهوره فى بلد ما يعطيها نوعًا من صكوك الأمان ضد الغزو . ولهذا لا نندهش كثيرًا عندما نعرف أن الصين اعتبرت البطة دونالد عميلة للمخابرات المركزية ومنعت دخولها البلاد لفترة طويلة إبان الثورة الثقافية .

إن الثقافة الأمريكية على مستوى القراءة أو المشاهدة أو الطعام هى أمضى سلاح فى ترسانة الحرب الأمريكية ، والولايات المتحدة قادرة بالفعل على فرض أولوياتها الثقافية .. إنها الدولة الوحيدة التى تشتمها وأنت تستمتع بأفلامها وتتلذذ بمشروبها الشهير .

أنت تشعر بأن من يرتادون محلات الوجبات الجاهزة الأمريكية لا يفعلون ذلك لأنهم يحبونها ، بل لما يحظون به من (ممارسة للأمركة) على أرض وطنهم ، وهم يدفعون ثمن هذه الممارسة غاليًا ..إن هذه المحلات لا تبيع طعامًا لكنها تبيع جوًا وطقوسًا وهى تعرف هذا .. يلبس الشاب (الكاجوال وير) مع كاسكيت البيزبول المقلوب على رأسه ، ويحمل شطيرة الهامبورجر وفى اليد الأخرى كوب البيبسى يبرز منه الشفاط فيشعر بأنه واحد من هؤلاء السادة فى مانهاتن ، ويا حبذا لو استعمل لفظة Shit مع كل عبارة .. باختصار هم يرتادون هذه المحلات لكى يكونوا من القوم الذين يرتادون هذه المحلات .. لماذا صار الشباب يصافحون بعضهم على طريقة High five أى تلك المصافحات العالية التى يستعملها لاعبو السلة الأمريكيون ؟.. لماذا يلبس الشباب القلنسوات الصوفية على غرار الزنوج الأمريكيين مطربى (الراب) ؟

عندما أشاهد أفلام الأمريكيين وحلقاتهم الكوميدية من طراز كوميديا الموقف Sitcom أجد غريبًا جدًا أن يفهم المواطن العربى هذه الموضوعات أو يتذوقها لكن هذا يحدث .. مشكلة الفتى المراهق الذى لا يستطيع مواعدة Dating أية فتاة فى الصف .. مشكلة الفتاة فى الذهاب إلى حفل الرقص السنوى .. مشكلة الطفل الذى لا يحقق أهدافًا فى لعبة البيزبول .. ثم الدعابات السمجة : « أطرف شيء حدث لى فى طريقى لهذا الحفل .. تصوروا أننى لم أجد زيتونًا للمارتينى ! » فينفجر الجمهور ضحكًا ومعه يضحك (عباس) أو (حلمى) من فرط طرافة الموقف .. لا زيتون للمارتينى ؟.. يا للسخرية! . ثم الكلام عن « بطل الكلية الذى يزن مائة رطل وطوله ستة أقدام .. » فتحاول أنت جاهدًا فهم ما يمثله هذا بالمتر والكيلوجرام .. ثم يظهر مقدم حفل الأوسكار الذى مهمته هى التَّظَارُف ستيف مارتن غالبًا ليقول لنا : « لقد شعرت كأننى فى رون هوارد شو !.. » هنا ينفجر الجمهور ضحكًا ويوشك على الاختناق .. أنت مطالب بأن تعرف ما تعنيه هذه الدعابة أو تختنق ضحكًا مع الجمهور ..

حتى على مستوى مجلات الأطفال ، لماذا لا يتزوج دونالد صديقته ديزى أبدًا ؟.. إنه يحاول الفوز بحبها ومن جديد ندخل فى نطاق (المواعدة) .. لكن ولا كلمة عن الزواج .. أين الآباء والأمهات فى هذه القصص ؟..

ويلاحظ من يتابع الأفلام الأمريكية الحديثة أن هناك نغمة تقديس واضحة لثلاثة أنماط من البشر : الزنجى واليهودى والشاذ جنسيًا .. راجع فيلم (أفضل ما يكون) حيث تجد ثلاثة الأنماط معًا . يسهل قبول العنصر الأول بشرط ألا يتحول إلى عنصرية مضادة ، وإن كان العارفون ببواطن

الأمور يؤكدون أنها مجرد قشرة سطحية تخفى عطن العنصرية .. يسهل قبول العنصر الثانى بشرط ألا يتحول إلى صهيونية أو تعصب أعمى .. أما العنصر الثالث فابتلاعه عسير جدًا .. لكننا نتعلم كيف نبتلعه بالتدريج ، وعلى طريقة راسبوتين فى ابتلاع جرعات متزايدة من السم يوميًا ..

إن الثقافة الأمريكية قوية إلى درجة أنها تخدر المواطن الأمريكى نفسه .. هذا المواطن الذى يمسك بعلبة البيرة الباردة ويلبس الكاسكيت بالمقلوب ويصلح هوائى التلفزيون لمشاهدة مباراة كرة القدم .. كرة القدم التى يلعبها على عكس العالم كله . وهو يؤمن فعلاً بأن أمريكا تقود العالم الحر وأن ديمقراطيتها هى النموذج الأعلى للشعوب الأخرى .. هذا المواطن التعس الذى آمن بخطر الشيوعية ، ثم بعد سنوات راح يتساءل : كيف قادنا ماكارثى إلى هذا كله ؟.. هل كنا مجانين ؟.. ثم نسى الأمر برمته وحارب فى فيتنام وبعدها بسنوات راح يتساءل كيف وصلنا لهذا ؟.. كيف كنا بهذا الحمق ؟.. ثم سرعان ما نسى وأرسل ابنه إلى العراق .. ولسوف يتذكر الأمر بعد عام أو عامين ليتساءل : كيف تركنا بوش يقودنا إلى هذا الجحيم ؟..

بعد خسارة كيرى أمام بوش قرأت رأيًا لأحد المواطنين الأمريكيين يقول : لقد كان كيرى رائعًا فى المناظرات .. لكننا نؤمن أن المناظرات لا تدل على شيء لهذا كان لابد أن يخسر !..

تأمل معى منطق الأطفال هذا : من يفز فى المناظرة لابد أن يخسر الانتخابات لأن المناظرات لا تدل على شيء !.. إذن هل كان على كيرى أن يخسر المناظرات ؟.. وما جدواها إذن ..؟..

كائن مغرور ساذج مخدوع ..هذا هو المواطن الأمريكى .. المواطن الأمريكى المتوسط الذى ليس خبيرًا فى مؤسسة (راند) وليس طبيبًا فى (مايو كلينيك) .. لكنه صار النمط الثقافى الأكثر جاذبية على ظهر هذا الكوكب ، وصار على الشباب أن يفرح لما يفرحه ، و يقلق من أجل ما يقلقه حتى لو كان عدم وجود زيتون لشراب المارتينى .. إنها العولمة التى وصفها د . (جلال أمين) بأنها تسرى فى اتجاه واحد : منهم إلينا .. بينما المفترض أن تسرى فى الاتجاهين .. لكن الأمريكى يؤمن أنه ليس لدى الشعوب الأخرى ما تقدمه له إلا فطيرة إيطالية جديدة أو وجبة مكسيكية أو أسلوبًا صينيًا جديدًا فى التأمل ..

لقد تغلغلت الثقافة الأمريكية فى خلايانا وخلايا شبابنا بلا شك .. والمشكلة أن المقابل الفكرى المتمثل فى الاتحاد السوفييتى لم يعد موجودًا .. كانت هناك سماء وأرض ، وكان هناك أبيض وأسود ، وكان هناك ماء ونار .. اليوم لم يعد لدينا إلا الأرض والأسود والنار .. فلابد أن الناس فى روسيا الآن يحاولون تحويل الرطل والقدم إلى الكيلوجرام والمتر ، أو يبحثون عن زيتون لشراب المارتينى !

الكابوس الأمريكى

كلما رأيت تداعى الأحوال فى مصر ، وذلك الشرخ الذى يتسع ويتسع فى الجدار منذرًا بالويل ، فكرت فى أنانيتى الخاصة عندما لم أفكر فى الهجرة للولايات المتحدة من أجل أولادى .. لقد عانى (كونتا كينتى) جد (أليكس هيلى) الكثير عندما تم اختطافه من سواحل غانا وحُمل فى قاع سفينة إلى العالم الجديد ، لكننا لو فكرنا تفكيرًا جانبيًّا لوجدنا أنه كان يكافح كى ينعم أحفاده اليوم باستعمال الألفاظ البذيئة وشرب الكولا ورقص الراب فى بروكلين .. يكفى أن أحد أحفاده صار هو الكاتب العظيم (أليكس هيلى) ..

لى صديق فعلها فى هذه السن المتأخرة نسبيًّا .. السن التى لا تسمح لك بأن تغسل الصحون أو تقف فى محطة وقود ، بينما تقضى الليل منكبًا على دراسة الطب .. لكنى فى النهاية أجد أننى بالفعل لا أحب نمط الحياة الأمريكى ولا أطيقه .. حياة رُسمت سلفًا بكل مراحلها وسوف تتحرك فيها كأنك قطار يتحرك على خط حديدى .. صحيح أنك فى مصر قطار آخر يتحرك بجرار تالف على خط حديدى متآكل ، لكن الحياة هنا فى مصر ذات طعم ولون ورائحة ..الكثير منها فى الواقع ..

لو أننى ولدت فى نيويورك وكنت ذكرًا بروتستنتيًّا أبيض WASP فإن حياتى مرسومة عبر محطات معروفة صرت أحفظها من قراءة المجلات الأمريكية ومشاهدة أفلامهم ..

عالم المراهقة : هذا هو عالم المدرسة الثانوية وقلة الأدب والتطاول على المعلمين لأن التعليم ممل Boring .. مشكلتى هى البلطجى (هانك)

الذى يتربص بى لأننى نحيل وبنظارة وهناك نمش على وجهى ، وهو يتعمد إهانتى وسكب اللبن على رأسى ساعة الطعام ، ولا أحد يتعاطف معى فى مجتمع لا يرحم المهزومين سواء كانوا هنودًا حمرًا أو عربًا أو زملاءك فى الصف ، ثم يأتى موعد الحفل الراقص السنوى وانتخاب الـ Prom queen أو ملكة الحفل .. كيف أقنع فتاة بأن تصحبنى للحفل ؟.. كيف يرضى أبى بالتخلى عن السيارة ؟.. بعد حفل كهذا سوف تفقد حسناء الصف (كارول آن) عذريتها ، وهى ليست مشكلة ؛ لأن أباها كان سيصحبها للطبيب النفسى لو تأخر الأمر أكثر من هذا ، ولربما ظهرت فى إحدى حلقات (أوبرا) لمناقشة مشكلتها ..

البيزبول لعبة مملة يستحيل فهمها .. ملعب يشبه الماسة وشخص يضرب الكرة بمضرب يستعملونه لقتل الزوجات كذلك ، وهناك ثور يلبس درعًا على صدره يتلقفها بقفاز .. ثم يصرخ الجميع : « اركضوا يا فتيان ! » ونحرز نقاطًا لا أدرى على أى شىء ، لكن البيزبول هو الطريقة الوحيدة لقبولك فى مجتمع كهذا ، وكى تحبك الكتاكيت Chicks .. هناك كرة القدم الأمريكية العجيبة التى تلبس فيها الدروع وتضرب عددًا من الثيران ، ولا تلمس قدمك الكرة مرة واحدة .. بينما المدرب (رالف) يصرخ فى وحشية : سوف نسحقهم يا شباب !

كلها ألعاب معقدة تختلف عما يلعبه العالم كله ، وكلها تحتاج إلى إمكانيات وثراء .

الكلية : تقريبًا نفس روتين المدرسة الثانوية .. أضف لهذا الحفلات الصاخبة التى يشرب فيها الجميع البيرة Booze وتتعرى الفتيات تمامًا .. هذه هى الفترة

التى سأجرب فيها المخدرات لأول مرة .. سأكون محظوظًا لو شاركت فى احتفالات (ماردى جرا) التى تذكرك بأعياد (باخوس) الرومانية الماجنة ..

بعد التخرج : أنا أعمل فى شركة تنفيذية ما تمارس المنافسة قاطعة الرقاب مع شركات أخرى .. القميص قصير الكمين وربطة العنق والعروض على جهاز الكمبيوتر .. مغازلة زميلة العمل عند براد الماء .. العمل من التاسعة للخامسة والخوف المزمن من الطرد والجوع .. لو طردت سأقوم بتعبئة لوازمى فى علبة كبيرة من الورق المقوى وأخرج من الباب يرافقنى رجل الأمن ... ولسوف أصير سكيرًا ...

الأسرة : حفل الزفاف والسيارة التى ربطوا بها علب طعام محفوظة فارغة تحدث قعقعة .. مشكلة زوجتى هى تقليل السعرات فى الطعام بسبب الشحوم حول الخصر .. يجب أن أقلل من ولعى بشطائر الهامبرجر والجبن .. ابنتى (سو ألين) صارت الآن مراهقة وقحة تصر على أن ترافق الفتية للمرقص وتقول لى : « داد .. أنت ابن عاهرة وسافل وحقير .. أنا أكرهك .. » تقولها وهى تهز شعرها الطويل ليغطى نصف وجهها ثم تندفع خارجة من الغرفة كنمر هائج ...

فأبتلع الإهانة .. لو صفعتها لشكتنى للشرطة وقُبض علىّ .. لابد من الصبر حتى أحل مشكلة تعاطيها المخدرات ومشكلة الحمل فى سن الخامسة عشرة .. أذهب أنا وزوجتى لحفلات الكوكتيل حيث أقف أمام الناس لأحكى لهم عن (أظرف شيء حدث لى فى طريقى لهذا الحفل) .. و(أفضل مطعم يمكن أن تتناول فيه شطائر التونة بالبطاطا المقلية) .. ثم نعود للبيت لتطالبنى زوجتى بالطلاق بلا سبب وتبدأ فى حساب ما يناله كل منا من ممتلكاتى ..

ربما تنجب زوجتى لو لم تطلقنى طفلاً مشوهًا له أربعة أنوف وثلاث آذان وذيل .. هنا أقرأ فى الصحف عن معهد فى أوهايو متخصص فى الأطفال الذين لهم أربعة أنوف وثلاث آذان وذيل .. أذهب هناك لأقابل د. (سميث باركر) خبير الأطفال ذوى الأربعة أنوف والثلاث آذان والذيل الذى يقول لى : "أهم شيء أن نجعل طفلك لا يشعر بالاختلاف عن الآخرين .. »

هكذا يصير طفلى رسامًا وأستاذًا جامعيًا وبطلاً فى كرة القدم ، ويظهر فى حلقة من حلقات (أوبرا) حيث يبكى الجميع مع كثير من (الواو والأوه وماى جاش) ..

السياسة : سواء كنت ديمقراطيًا أو جمهوريًا فأنا مؤمن أن الفلسطينيين إرهابيون يحاولون أن يأخذوا من اليهود الطيبين أرضهم .. أؤمن بالقيم الأمريكية وطريقة حياتنا .. أؤمن بالديموكراسى وماى فيلو أمريكانز .. أدعو لهم بالنصر فى العراق الذى لا أعرف أين هو ولا مشكلته بالضبط .. ولا يعنينى شيء من هذا .. أحترم بشدة أو أتظاهر باحترام اليهود والزنوج والشواذ جنسيًا حتى لو كنت أنتمى للحزب الجمهورى .. كنت أمقت الشيوعية واليوم أمقت الإسلام .. هؤلاء القوم الذين يعبدون القمر ويذبحون الأطفال قرابين من أجل إلههم الذى يسمونه (الله) .. ويرقصون عراة فى موسم الحصاد ..

الحادث : ثم أسقط من على الجبل وأنا أمارس التزلج فيتهشم ظهرى وأصاب بالشلل ، لكنى أصر على المقاومة .. وأروح أضرب كرة البيزبول فى الحائط طيلة اليوم على سبيل التدريب .. هكذا أستعيد صحتى ،

وأكتب قصتى فى كتاب اسمه (كيف قهرت الشلل) وهو الكتاب الذى يشتريه التلفزيون فورًا ، من ثم أتمكن من شراء ذلك البيت الجميل الذى كنت احلم بشرائه فى (بالتيمور) ..

النهاية : هذه هى سن سرطان القولون .. مشكلة التقدم فى الرعاية الصحية هى أنك لا تموت بالتيفود ولا نوبة قلبية فى سن الخمسين كما كان يحدث ، بل تنتظر حتى سن الثمانين حين تقرر خلاياك أن تصاب بالجنون .. سأموت فى المستشفى ويحرقون جثتى .. ثم يقف أولادى متظاهرين بالتأثر فوق قبرى ويطوق أحدهم كتف أمه مواسيًا ويقول آخر : « وداعًا داد .. كنت عظيمًا .. »

أموت مطمئنًا لأن أولادى باقون من بعدى وسيمشون فى نفس الدرب ، ويحافظون على القيم الأمريكية .. قيم (علم النجوم اللامعة) ..

هذه هى حياتى لو نشأت فى أمريكا أو هاجرت إليها .. وإننى لأسألك بكل صدق : متى عشت ؟.. متى اختلفت ؟.. هل هذه هى الحياة التى من أجلها أغسل الأطباق ، و أدرس الطب ليلاً ، وأبحث عن فتاة أمريكية (مضروبة) تقبل الزواج منى وتمنحنى الجنسية ؟.. بصراحة عندما أقارن بين حياة (ماى فلو أمريكانز) هـذه وحياتنا الحالية بما فيها من فوضى وعشوائية وفقر ومرض و(شعبان عبد الرحيم) فإن شعبان يكسب بالتأكيد ..!

إذن هو الدلاى لاما ..

مصر بلد جميل ذو تاريخ عريق ، وقد حباها الله بشمس دافئة طيلة العام ، مع هواء عليل ومناظر خلابة ، لهذا يقصدها السياح من أرجاء الأرض لينعموا برؤية آثارها العظيمة التى تنطق بعظمة التاريخ ، وينعموا بالسباحة فى مياهها الجميلة أو يمارسوا رياضة الغطس فى البحر الأحمر حيث الشعاب المرجانية رائعة الجمال . وقد قال مصطفى كامل : لو لم أكن مصريًا لوددت أن أكون مصريًا ، لهذا يبكى السياح لأنهم ليسوا مصريين ، ويحقدون على مصر كثيرًا . ولقد عاشت فى مصر شعوب كثيرة شربت من مائها وامتزجت بحضارتها ، لهذا نقول بحق أن مصر أم الدنيا ، و ...

أراك تتساءل : هل جن الرجل ؟.. ما هذا الكلام الذى يكتبه ؟ . أقول لك إننى لم أجن لكنى اكتسبت الحكمة فجاة ، وقد تعلمت الكثير من رأس الذئب الطائر لو افترضنا جدلاً أن إبراهيم عيسى ذئب . لقد قررت أن أكتب كلامًا يحقق لى المعادلة الصعبة : ألا أسجن أو أثير غضب أحد ممن نستعيذ بالله من غضبهم ، وفى الوقت نفسه يحفظ لى مكانى فى جريدة الدستور . الحقيقة أن هناك حلولاً أسهل مثل أن أتفرغ للكتابة فى مجلة (ميكى) ، لكنهم لا ينشرون صورة الكاتب هناك ، وهذا سيقلل من مكانتى فى البيت كما تعلم .

بحثت كثيرًا جدًّا عن قضية لا تثير حفيظة أولى الأمر .. مستحيل .. كل شيء زفت وهباب ولابد أن يغريك بإبداء الغضب فالتورط فى كلام يودى فى ستين داهية .. يبدو أن العرب الذين كانوا يكتبون فى وصف الأطلال والناقة كانوا يفعلون هذا كى لا يسجنهم سادة القبيلة لو تكلموا

عن شيء آخر . لو تكلمت عن إسرائيل كالعادة فأنا أقع في عش الدبابير ، خاصة أنني سأكتب وأنا أغلي تحت تأثير مقال الأستاذ هويدي الذي كشف عن قيامنا بتصدير الغاز الطبيعي النادر لإسرائيل بملاليم ، مع الالتزام بالتصدير حتى بعد نفاده عندنا .. يعني لن يكون عندنا غاز لكننا سنشتري غازًا بسعر باهظ نصدره لها بملاليم ، والأدهى أن دولة مثل أسبانيا ستأخذ الغاز منا بذات السعر الرخيص لتبيعه بسعر السوق .. ليه كده ؟.. هل إسرائيل تبتزنا بشيء ما ؟.. هل معها (النيجاتيف) على رأى استيفان روستي ؟.. لماذا تبيعون حق ابني في الحياة ؟.. أنا متنازل عن حقي لكن ماذا عنه هو ؟ لماذا تصرون على ذبح الدجاجة وسرقة كل مسمار في السفينة ؟.. لماذا لا تبقونها طافية ؟.. محمد علي أراد حلب مصر لكنه قرر أن يسمنها ويحسن تغذيتها جيدًا أولاً .. فلماذا لا تتعلمون منه ؟

هل أتكلم عن الرغيف وأزمته و الرجل النحيل البائس ممزق الثياب الذي رأيته يركض في الشارع وهو يحتضن عشرة أرغفة فاز بها من الطابور ، حتى ليوشك على البكاء ، فقط لينقض عليه صبي على دراجة ليخطف منه رغيفين ؟.. هل هي المجاعة إذن ؟.. هل نحن مقبلون على ذلك العصر الرهيب الذي قرأنا عنه (أكل حمار الوالي ثم أكل جثة اللص الذي أكل حمار الوالي) ؟

هل تتكلم عن البطالة ؟.. عن المستقبل ؟.. عن أزمة التعليم ؟.. عن المرور ؟.. عن ؟.. عن ..؟..

هل تتكلم عن انتخابات المحليات ؟.. أنت تعرف جيدًا أنك لم تعد تتابع حرفًا من هذه الأمور منذ 73 سنة . ربما تتكلم عن كرة القدم وتشتم في الحضري قليلاً ، لكن هذا مجال خطر .. قد تدوس على لغم لا [illegible] أنه لغم .

هل أتكلم عن قصة حب شبابي الفاشلة ؟.. محاسن التي تخلت عني بعد ما تقدم لها مهراجا يملك طائرة بوينج وعدة جزر وقدم لها ماسة الكوهينور على سبيل الشبكة ؟.. بدا لي الأمر رقيعًا ، خاصة وأنا لا أكف عن ابتلاع أقراص علاج ضغط الدم ولا توجد ثلاث شعرات سوداء متجاورة في رأسي ..حب إيه وزفت إيه ؟.. دعك من أن المقال قد يقع في يد أم العيال ، وهذا يجعلني في موقف لا يقل خطورة عن غضب الكبار علي .. على الأقل غضب الكبار معناه أن أموت مناضلاً ، أما غضب أم العيال فمعناه أن أموت نذلاً منكرًا للنعمة .

وجدتها ..!.. الحل العبقري الوحيد هو أن أكتب عن مشكلة الدلاي لاما .. . سوف اكتب عن الصين المفترية التي تمنع هذا الزعيم الروحي البوذي من العودة إلى التبت حيث ينتظره المؤمنون . أمريكا قلقة وتطالب بتفسيرات من الصين .. جميل جدًا .. هكذا أنا عرفت اتجاه الريح وأين أكون آمنًا .. سوف أشتم في الصين للصبح . سوف أتضامن مع سكان التبت وأسود الصفحات من أجلهم . لم لا ؟.. لماذا نتوقع أن يتعاطف العالم معنا ولا نتعاطف مع العالم ؟.. أليس هذا أقرب للتحضر ؟

قلت لصديقي إنني سأحلق شعري زيرو وأحمل كيسًا خيشيًا للشحاذة وأخرج حافي القدمين إلى الشارع كما رأيت الناشطين الأوروبيين يفعلون في التلفزيون . قال لي إن هذا ليس عملاً عاقلاً لأن رجال الأمن سيعتبرونني مجنونًا أو شيئًا آخر لا أستطيع كتابته هنا ، ولسوف يعتنون بي فعلاً . بتحب الدلاي لاما يا روح أمك ؟.. طيب تعال !.. هكذا عدلت عن هذه الفكرة وقررت أن أكتب مطالبًا الصين بأن تعيد الدلاي لاما

للتبت وأن تسمح بالحرية الدينية لسكان هذا البلد . حتى أننى بدأت تأليف أغنية جديدة لشعبان عبد الرحيم تناسب طريقته فى مواكبة الأحداث كأنه نشرة التاسعة :

فيه ناس كتيرة ياما ..خلاص حتتنقط

ما تسيبوا الدلاى لاما..يرجع للتبت ..

حقًا هى ليست أغنية جيدة لكنها تؤدى الغرض ، وأرجو ألا يتجاهلها شعبان كما تجاهل رائعتى السابقة (قتلوا بناظير بوتو .. كل الحلوين بيموتوا ..) ..

نعم .. صدقنى .. بعد الحكم الصادر ضد إبراهيم عيسى وزكيبة القضايا التى تنتظره ، لم أعد طفلاً .. كنت بحاجة لهذا الدرس كى أعرف طريقى وكى أعرف عن أى شيء أكتب بالضبط . كنت أعتقد أننى ذكى بما يكفى وأننى يمكن أن أقتدى بالكاتب الشهير (.....) والكاتب الشهير (.....) الذين يكتبون بطريقة (الحكومة سيئة وتضيع كل جهود مبارك للإصلاح) ، وهى طريقة خبيثة ناجحة تضمن لك رضا الجميع ، وتحتفظ لك لدى رجل الشارع بصورة المناضل الذى لا يخشى فى الحق لومة لائم . هذه مدرسة تختلف تماما عن مدرسة عيسى وقنديل التى نعرفها حيث لا سقف من أى نوع ، لكن من الواضح أن سقف الحرية يهبط يومًا بعد يوم ، وأن هذه المدرسة الخبيثة نفسها خطرة ..

إذن هو الدلاى لاما حتى إشعار آخر ..

عبقرية النفاق

عندما قلت فى الأسبوع الماضى إننى قررت التفرغ للكتابة عن الدلاى لاما وحكومة الصين ، منعًا لانزلاق قدمى فى قول كلام يغضب الكبار ، كتب لى أحد القراء : « هناك حل ثالث وهو أن تنافق .. الأمر سهل .. »

فعلاً لم يخطر هذا ببالى من قبل لكن الفكرة بدت جديرة بالتأمل . النفاق ليس عملاً سهلاً أو هينًا بل هو يحتاج إلى أكبر قدر ممكن من التحكم فى العواطف وفى تعبيرات الوجه وانتقاء الكلمات . عندما يجلس الرجل مع امرأة يمقتها ويشمئز منها ، فإن خروج أبسط كلمة مجاملة تغدو كالولادة المتعسرة .. الكلمات لها ثقل الحجارة ووعورتها . فقط يجتاز هذا الاختبار الرجال الموهوبون الذين يستحقون لقب جيجولو أو Womanizer كما يقول الغربيون .. هذا رجل استطاع أن يتحكم فى لسانه وملامح وجهه كى يخرج الكلمة الثقيلة . بعض هؤلاء العباقرة ينجح فى برمجة عواطفه كذلك بحيث يعتقد صادقًا أنه يحب هذه المرأة .. باختصار : النفاق ليس لعبة للهواة ، ومن يحسن النفاق يستحق المكافأة التى سينالها من حظوة ونفوذ وثراء ..

رأيت منذ أيام على إحدى الفضائيات مناظرة ثلاثية على الهواء بين أحد قيادات الأخوان وأحد رؤساء التحرير الحكوميين وسيدة حقوقية أوروبية ، وكان الكلام عن المعجزة التى جعلت عشرة آلاف مرشح أخوانى للمحليات يذوبون فلا يبقى منهم إلا بضعة عشرات ، سوف يذوبون بدورهم فلا يبقى منهم أحد . كانت تهمة (تزوير الانتخابات قبل أن تبدأ) قوية وكلام السيدة منطقيًا ومرتبًا .. هنا وضعت يدى على قلبى

تعاطفًا مع رئيس التحرير الذى يواجه سيل الاتهامات هذا ، خاصة وقد انضم المذيع نفسه لمن يتهمون الحكومة المصرية بالقمع والتزوير . ماذا سيقول ؟.. هذا رجل يعتمد مستقبله ونفوذه وثراء أولاده وفيلا الساحل الشمالى وزفاف البنت فى أكبر فنادق القاهرة على الكلمات التى سيقولها حالاً ..

لكن الرجل بدأ يتكلم .. قال إن هذا دليل على أن الأحزاب المصرية ـ باستثناء الحزب الوطنى ـ لم تستطع تربية كوادر صالحة لخوض التجربة ، ولم تستطع خوض عملية الانتخاب الطبيعى الداروينى فالموت للفاشلين .. إلخ . لم يكن مقتنعًا .. كانت عيناه تنطقان بعدم التصديق ، ومن الواضح أنه غير سعيد بما يقول ، والأسوأ أنه الرجل الذى يأتون به دومًا للدفاع عن الحكومة فى أى شىء تفعله .. وضع عصا فى مؤخرة المعتقلين .. تعرية الصحفيات .. تزوير الانتخابات .. تصدير الغاز لإسرائيل .. إلخ .. هو دائمًا هناك ليرد وليبدى إعجابه بحكمة الحكومة وغباء المعارضين وقلة أدبهم .

لا شك فى أنه تنفس الصعداء عندما انتهى البرنامج وتخلص من هؤلاء المزعجين الثلاثة ، لكنى أسألك بصراحة : هل تستطيع أن تحل محله ؟.. هل يمكنك أن تدافع بهذه الكفاءة عن شىء لا تؤمن به ؟.. أنت لا تستطيع .. هو استطاع ولهذا استحق أن يظفر بكل ما ظفر به .. ربما أوصلته العبقرية فيما بعد إلى أن يقنع نفسه بأنه يحب الحكومة فعلاً ، لكن عينيه كما قلت لك كانتا تشيان بأنه لا يصدق حرفًا مما يقول .. إنه ما زال فى مرحلة مغالبة النفس قبل أن يصل إلى حالة السلام النهائى أو النيرفانا ، وعندها يحب الأخ الأكبر على رأى الخواجة أورويل ..

هناك خبر قرأته منذ أعوام ولست متأكدًا من صحته بصراحة عن مذيع نيجيرى كان يقدم نشرة الأخبار ، وفجأة تصلب وصمت .. ثم قال للمشاهدين : « معذرة .. لا أستطيع المضى فى قراءة هذه الأكاذيب .. » هذا الخبر لو صح حدث فى نيجيريا ، أى أنه يحدث فى بلد أفريقى متخلف لا يتمتع بوجود هؤلاء العباقرة الموهوبين ...

كنت أقرأ ما يكتبه بعض رؤساء التحرير الحكوميين فى صفحة جريدة كاملة لابد أنها تلتهم ثلاثة أو أربعة آلاف كلمة بلا مبالغة .. كلام لا أول له ولا آخر ولا رأس ولا ذيل .. أسأل نفسى عن الموهبة الخارقة فوق البشرية التى أوتيها هؤلاء لكتابة كل هذا الهراء .. الأمر قد تجاوز مجال الأحكام الأخلاقية إلى مجال الانبهار بقدرات بشرية خارقة ، مثل ذلك الساحر من جزر الكاريبى الذى رأيته يلتهم عشرين ضفدعة حية دون أن يموت أو يقيء .. ألا يستحق هذا المجهود مالاً ونفوذًا ؟

أحيانًا يكون دافع النفاق هو الخوف .. منذ أعوام قبل غزو العراق رأيت مناظرة على شاشة الجزيرة بين دبلوماسى كويتى هادئ الأعصاب قوى الحجة ، ورئيس تحرير جريدة عراقية متوتر عصبى .. الموضوع كان عن احتلال الكويت ، وقد كان العراقى يعرف أنه يدافع عن قضية باطلة أصلاً ، لكنه كان يدافع عن حياته أولاً .. وتساءلت عما كان سيقوله لو كانت الحلقة تذاع من بلد غير العراق .. أعتقد أنه كان سيقول ما يقوله الكويتى بالضبط ..

يذكر التاريخ للشاعر ابن هانى الأندلسى بيتين مدح بهما الخليفة الفاطمى المعز لدين الله قائلاً :

ما شئت لا ماشاءت الاقدار .... فاحكم فأنت الواحد القهار .

وكأنما أنت النبى محمـــــد .... وكأنما أنصارك الأنصار !!

قيل إن هذين البيتين كانا شؤمًا أدى لسقوط دولة المسلمين فى الأندلس ، لكن لا تنكر أن الرجل ضحى بالكثير جدًا .. لقد قبل أن يستحق الاحتقار طيلة حياته ، وأن يظل دارسو الأدب العربى يلعنونه ، وأن يصير اسمه نموذجًا للنفاق للأبد ، خاصة والشعر لا يموت وسيظل يطاردك حتى يوم القيامة . وأعتقد أنه نال الكثير مقابل هذين البيتين .. هذا رجل قبل أن يصير غريبًا وسط أهله وقومه وأن ينعزل وأن يعتبره عامة الناس كلبًا ، وأن يربطوا بين صورته وصورة فتاة الليل المستندة على عامود نور وبين شفتيها المصبوغتين سيجارة .. قبل الرجل هذا كله فهل ترضون له أن يبيع نفسه مقابل لا شىء ؟ . عم أحمد فؤاد نجم يقول : "نبدأ كلامنا عن الأشعار واللى زانوها .. بيرم وخيرى وكل الناس اللى صانوها . أما الكلاب عند الجواسيس واللى خانوها .. فدول كلاب وما يتذكروش هنا بالمرة .. الله الله يا بدوى جاب اليسرى » . قد تلصق بعم نجم تهمًا كثيرة لكن تهمة النفاق لن تكون بالتأكيد من بينها.

نعم .. للنفاق ناسه وقومه الموهوبون القادرون على أن يكونوا مكروهين . ليس لعبة للهواة ولا يمكن تعلمه فى سن متأخرة .. لهذا لا يبقى أمامى سوى المجال الذى أعتقد أننى يمكن أن أبرع فيه : لماذا لا تسمح الصين للدلاى لاما بالعودة للتبت ؟.. ولماذا لا تسحب جيوشها من هذا البلد الصغير التعس ؟.. سؤال وجيه جدًا ارجو أن أتلقى عنه ردًا أكثر وجاهة ..

عن إيرفنج ودرشوفتز وآخرين

لو أنك كنت مواطنًا إسرائيليًا لبدت لك الحياة مجموعة من المفاجآت السارة : مع كل صباح هناك من يحج إلى إسرائيل ليقدم فروض الطاعة ويعدهم بالحماية .. ربما إلى درجة البكاء .. هاهو ذا ماكين المرشح الجمهورى للرياسة يقصد إسرائيل ليبكى عند حائط المبكى ، ثم يزور الأردن ليعلن وهو هناك أنه سيجعل القدس عاصمة أبدية لإسرائيل .. قالها فى الأردن ولم يقلها فى إسرائيل ، ولسبب ما لم يضربه أحد بالجزمة . ميركل الألمانية تزور إسرائيل لتعتذر للمرة المليون عما فعله هتلر وتؤكد أنها خادمة إسرائيل للأبد . كل هذا التدليل وبرغم ذلك تجد ثلاثة أعضاء فى الكنيست لا يعجبهم العجب .. يقول أحدهم فى تعصب : نحن لا نريد من ألمانيا سوى الغواصات والسلاح .. لكن ليس لها أن تأمل فى أى تطبيع ثقافى من أى نوع لأننا لن ننسى ما فعلوه بنا .. ثم كيف تجرؤ هذه المرأة على استعمال اللغة الألمانية الكريهة فى مكان مقدس كالكنيست ؟!!

اليوم نتحدث عن رجلين أكاديميين غربيين كرس كل منهما قلمه وعلمه للدفاع عن قضية : الأول كرس حياته لكى يثبت أن إسرائيل دولة سفاحين تتلاعب بذكريات الهولوكوست الغامضة كى تبتز العالم وبالتالى هو يسبح عكس التيار تمامًا . الثانى يتبنى عكس هذا الرأى ويغنى مع السرب..

الرجل الأول هو المؤرخ البريطانى ديفيد ارفينج الذى فتح فمه وقال إن الإمبراطور عار تمامًا .. إنه عالم مهم لكن سمعته (زى الزفت) فى العالم الغربى وتهمته يشيب لها الولدان وهى (إنكار المحرقة) ، وهى تهمة تفوق الكفر بمراحل وتعنى أنك معاد للسامية ونازى .

مشكلة الرجل هى أنه منذ كتابه الأول (قصف درسدن) أبدى ميلاً واضحًا إلى تبرئة النازيين من معظم ما لصق بهم من تهم ، وألقى بالكثير من الجرائم على عاتق الحلفاء وخاصة تشرشل الذى اتهمه بأنه عنصرى قاس كذوب . لهذا لم يكن هجومه على إسرائيل مفيدًا لنا إلى هذا الحد لأنه صنف ضمن الفكر النازى الجديد .

أدرج الرجل ضمن قائمة ليست طويلة جدًا من منكرى الهولوكوست ومنهم جارودى وروبير فوريسون وإرنست زوندل الذى قال إرفينج إن كتاباته جعلته يقتنع بعدم حدوث الهولوكوست .. كل التحاليل الكيميائية لم تثبت وجود غاز (زيكلون) فى الأماكن التى يزعم اليهود أنها كانت أفران غاز .. كيف يُباد ستة ملايين يهودى وبرغم هذا ما زالت أعداد الناجين من المحرقة تتزايد كل يوم ؟ « لماذا ينقل النازيون اليهود من أمستردام وبروكسل إلى معتقل (أوشفيتز) الذى يبعد خمسمائة كيلومتر لمجرد حرقهم ، بينما كان يمكن عمل هذا خارج المدن التى أسروهم فيها ؟ » ويقول كذلك : « معسكر (أوشفيتز) كان مجرد معسكر عمل له ظروف سيئة ، وقد مات الكثيرون فيه كما مات سواهم طيلة سنوات الحرب» .

عندما اتهمه الكتاب الغربيون بأنه ينكر الهولوكوست استشاط غضبًا ، وقال : أنا لا أنكر الهولوكوست لسبب بسيط هو أنه لا يوجد شىء اسمه الهولوكوست أصلاً !

ألقى تلك المحاضرات النارية فى النمسا هكذا صدرت أوامر اعتقال ضده . فى تلك السنوات كان إرفنج قد صار الرجل غير المرغوب فيه رقم واحد لدى حشد من الدول ، وصار من المألوف أن تصدر الصحف وعليها صورته أثناء طرده من دولة تلو أخرى . وصدر فى فرنسا أمر

باستدعائه للمحاكمة طبقًا لقانون جيسو الذى يسمح لك بأن تشكك فى وجود الله وتنتقد المسيح لكن لا تشكك فى الهولوكوست ، لكن الرجل بالطبع لم يذهب لفرنسا . وسط هذا كله كان يواجه سيلاً من القضايا المرفوعة ضده حتى أنه أشهر إفلاسه عام 2002 .. لقد حارب الرجل كثيرًا من أجل ما يؤمن به . كانت نهاية فراره هى النمسا عام 2005 حيث تم اعتقاله ومحاكمته خلال أربعة أيام ، وقد وجد الرجل نفسه مضطرًا للاعتذار وسحب كلامه وإبداء الندم الشديد : "الآن أعرف أن النازيين أحرقوا ملايين اليهود .. كنت مخطئًا عندما قلت إنه لا توجد غرف غاز .. أنا آسف يا حضرات .. »

لكن المحكمة رأت أن ندمه غير أصيل وغير صادق .. ووصفه القاضى بعبارة قلما نسمعها فى المحاكمات : « إنه مثل عاهرة لم تغير أساليبها .. إن إرفنج مزيف للتاريخ وليس مؤرخًا لأنه يعتبر أنه لم تكن هناك محرقة ولا غرف غاز .. » هكذا صدر الحكم عليه بالسجن وقد أدهشه هذا لأنه كان واثقًا من البراءة كما قال وحجز تذكرة طائرة للندن . وقد عاد إلى آرائه القديمة بمجرد أن عرف أن الإنكار لا يجدي. لقد ربحت الرقابة فى العالم الغربى وأخرس مفكر جرؤ على إعلان رأيه .. كتب البعض على استحياء عن حرية القول التى تمت مصادرتها فى مجتمع ديمقراطى ، لكن الجميع تنهد فى ارتياح لأن هذا المزعج قد خرس قليلاً .

والآن أقدم لكم بكل فخر وغدًا أمريكيًا اسمه (آلان درشوفتز) .. هو محام شهير تخصص فى القضايا سيئة السمعة ، وأستاذ تاريخ فى هارفارد ، وله مظهر وديع مضحك يذكرك بالممثل الكوميدى (وودى آلن) . هذا الرجل متخصص فى الدفاع عن إسرائيل مهما فعلت وبشكل لا يمكن

تصديقه .. كلما قامت إسرائيل بمذبحة ما كتب أنها تقف في مقدمة عشر دول تعنى بحقوق الإنسان في العالم . « بأية معايير تظل إسرائيل صاحبة أنقى سجل حقوق إنسان وسط دول الشرق الأوسط .. » للأسف نحن نعرف أن هذه الجملة على الأقل صحيحة ..

لقد أصابته الانتفاضة بإسهال مقالات (والتعبير ليس من عندي بل هو لكاتب أمريكي) يدافع فيها محمومًا عن إسرائيل ، ويلومها على شيء واحد هو رقتها الزائدة مع الفلسطينيين .

عندما كتب أساتذة هارفارد عريضة تطالب بمنع تصدير السلاح لإسرائيل سخر منهم بقسوة وهدد بمقاضاة كل من يوقع على هذه القائمة . وهو صاحب المقال الشهير في واشنجتون بوست الذي يطالب فيه إسرائيل بأن تدمر قرية فلسطينية مقابل أول خرق لوقف إطلاق النار . برغم كل شيء أثار هذا الاقتراح غضب الأمريكيين وكتب أحدهم : « تدمير بيوت الأقارب الأبرياء لانتحاري .. هذا كلام يحرمه القانون الدولي .. لا فارق بين هذه السياسة وتدمير النازيين لبلدة (ليديس) الذي يدينه مستر درشوفتز .. هو فقط يقبل هذا عندما يتعلق الأمر باليهود ! » . لكنه على كل حال أكثر رقة من كاتب آخر اسمه (ناتان ليون) طالب بإعدام كل أقارب منفذ أية عملية استشهادية !

كتب درشوفتز يؤيد بشدة قتل إسرائيل للمدنيين اللبنانيين في حرب 2006 ، وكالعادة راح يعبث بتعريف كلمة (مدني) قائلاً إنها لفظة لا معنى لها مع الحروب الحديثة . نحتاج إلى لفظة جديدة تعرف المدنيين في عصر يختلط فيه هؤلاء بالإرهابيين .

من المعروف في الغرب أن درشوفتز يؤيد تعذيب الفلسطينيين بشدة ، وله نظرية خاصة اسمها (القنبلة التي تتكتك) لانتزاع الاعترافات . ويقولون إنه ليس ضد الإرهاب .. هو ضد الإرهاب الذي يمارس ضد اليهود واليهود فقط .. وبالذات في إسرائيل .

كتب جيمي كارتر عام 2006 كتابه الشهير (فلسطين : سلام وليس تفرقة عنصرية) الذي أدان فيه إسرائيل بشدة وعبارات واضحة ، حتى أنهم اتهموه بأن كتابه منسوخ من المواقع الأصولية الإسلامية . قال كارتر إنه كتب كتابه ليوضح حقائق لا يفهمها الأمريكان ، حيث يتنافس طرفان على ذات الأرض لكن أحدهما يملك قوة عسكرية ساحقة . "ما من أحد في أمريكا مستعد لسماع وجهة نظر أخرى .. لا يوجد جدل حول أي شيء قد يحرج إسرائيل ... »

طبعًا خرج درشوفتز يتحدى كارتر لمناظرة علنية ليخرسه ، لكن كارتر رفض في إصرار لأنه غير مستعد للمناظرة مع شخص يجهل كل شيء عن الوضع في الشرق الأوسط .

إن هذه الأصوات المعارضة موجودة ومنها القس جيسي جاكسون الذي قال إن الفلسطينيين صاروا زنوج الشرق الأوسط ، ومنهم تشومسكي العظيم ، لكن تظل هذه الأصوات خافتة جدًا عاجزة عن التأثير .. دعك من رأس الذئب الطائر المتمثل في أمثال إرفنج الذي يستمتع الآن بالسجن ثلاث سنوات .. ترى كم من أساتذة العالم الغربي يقبلون أن يشاركوه أكل العيش والحلاوة النمساويين في لومان فيينا ؟

العميل رقم واحد

هناك سيناريو لقصة ستريبس قمت بكتابتها منذ أربعة أعوام ولم أجد من يرسمها . القصة تصور أسامة بن لادن وأيمن الظواهرى يجلسان أمام خلفية من جبال أفغانستان الوعرة ويلقيان بيانًا ناريًا من تلك البيانات .. بعد انتهاء التصوير تتراجع اللقطة لنجد أن الجبال صورة جدارية عملاقة وأن التصوير يتم فى هوليوود ، ونرى مخرجًا أمريكيًا يثنى على الأداء ، بينما مدير المخابرات المركزية يهنئ الرجلين باعتبارهما أكفأ ضابطى مخابرات لديه على الإطلاق !..

لم أر بعد ما ينفى هذه الصورة أو يضعفها فى ذهنى ، برغم أنها تثير غضب كثيرين وربما جنونهم والدليل أننى لم أجد رسامًا يقبل رسمها .

فى كل يوم تتأكد هذه الصورة عندى أكثر ، خاصة عندما رأيت فى الأسبوع الماضى صورة الزهرات الكوريات المذعورات يجلسن مرتجفات بينما يحاصرهن رجال طالبان بالبنادق الآلية .. هذا هو الإسلام لا كما قدمه المسلمون الأوائل ولكن كما يقدمه ابن لادن وتلاميذه . ترويع آمنين عذل ومهاجمة نساء .. اليوم هو الجمعة ، فلا أعرف إن كان يوم الثلاثاء القادم سيرى هؤلاء الفتيات وهن حيات ، وإن كان هناك جو عام من التفاؤل الحذر لأن كبار رجال القبائل تدخلوا فى الوساطة ، والقبلية هى أهم شىء فى عالمنا كما تعرف.

قال المتحدث باسم طالبان إن هؤلاء مبشرات مسيحيات .. مبشرات إيه بس ؟.. هؤلاء القوم أقرب لديانات البوذية والشنتو والشامانية ، والمسيحى

منهم يحتاج إلى مبشر يعلمه أصلاً .. ثم لماذا تقتل مبشرًا ؟.. لماذا لا تحاربه بسلاحه وتكون أقوى منه فكرًا ؟.. من المعروف أن من يطلق الرصاصة الأولى هو الطرف الأضعف منطقًا ، فهل أنت كذلك ؟..

مسافة طويلة قطعها المجاهدون الأفغان منذ كانوا يطردون الاحتلال السوفييتى من بلادهم حتى بلغوا مرحلة حصار الفتيات الباكيات بتهديد السلاح . صحيح أن طرد السوفييت تم بسلاح أمريكى وبتدريب كامل من المخابرات المركزية ، وعلى سبيل المقلب الذى أعده برجينسكى للسوفييت ، لكنه كان جهادًا بالمعنى الدقيق للجهاد ولا أحد ينكر هذا ..

والآن تخيل معى أنك مواطن بريطانى مسالم لا علاقة له بتونى بلير ولا محافظى الولايات المتحدة المجانين عشاق الدماء .. تصحو يومًا لتجد أن طائرتين دخلتا فى مركز التجارة العالمى بمن فيهما من ركاب أبرياء (كم من أم كانت ابنتها الطفلة تنام على حجرها فى ساعات الصباح الأولى تلك) وهذا تحت راية الإسلام ، وتفاجأ بأن العالم الإسلامى يهلل فرحًا وأن المظاهرات تملأ باكستان تشيد بابن لادن تحت شعار (هذا بطلنا) ، ثم تصحو ذات يوم لتجد رجلاً ضعيفًا مقيدًا يرتجف بينما يقف خلفه خمسة أكشاك ملثمة يتلو أحدهم بيانًا طويلاً ، ثم يصرخ : (الله أكبر) وينقض بسكين ليذبح الرجل فى مشهد طويل بطيء يحطم الأعصاب ، ويقطعون رقبته ليضعوها على صدره . تصحو يومًا على رجل ملتح حاول أن يفجر طائرة أمريكية مدنية بمتفجرات فى حذائه .. تصحو على انفجارات فى مترو أنفاق لندن .. على انفجارات فى منتجع أندونيسى .. كل هذا تحت شعار نصرة الإسلام بينما تدوى صيحة (الله أكبر) ..

الصيحة التى فتح بها المسلمون العالم فى الماضى صارت تُستعمل فى أمور غريبة بعض الشىء .. ثم تأتى الطامة الكبرى وأنت ترى الزهرات الكوريات يبكين أمام الكاميرا ، وقد لبسن مثل النساء الأفغانيات ، وهن يعرفن أن بعض زملائهن قد قتلوا فعلاً .

أنت تعرف أن حكومتك البريطانية ترتكب الفظائع .. ترى صور (أبو غريب) .. ترى الأطفال المحترقين فى فلسطين والعراق .. أنت تشارك فى مظاهرات عديدة تتهم فيها (بوش) بأنه مجرم حرب وتطالب بمحاكمته ، لكنك تتساءل كذلك عن ذنب الذين ماتوا فى مترو الأنفاق ، وهذا الذى ذُبح ببطء أمام الكاميرا ..

طيلة الوقت يتصايحون بأن هذا لنصرة الإسلام ، بينما لا يكف الإعلام العربى عن تكرار (هذا ليس من ديننا فى شىء) .. (الإسلام يمنع ترويع الآمنين) .. فمن تصدق ؟

هل من الغريب عليك كبريطانى أن تعتبر الإسلام خطرًا مروعًا وأن ترى أن نبوءة (أسبوزيتو) تتحقق ؟.. المجاملات موجودة فى كل مكان ، والحديث عن حوار الأديان جذاب ، لكنك عندما تدخل الإنترنت تكتشف كم الكراهية المروع الذى يضمره الغربيون للإسلام اليوم ، إلى حد أن نسبة 90٪ من رواد أحد المواقع الأمريكية يرون أنه من الواجب قصف كل البلاد الإسلامية بالسلاح النووى لتسويتها بالأرض ..

لكن هل ابن لادن هو من نفذ هجمات سبتمبر فعلاً ؟.. لن نعرف أبدًا ولكن يكفى أن مفكرًا فى حجم (هيكل) ما زال يرى أن هذا مستحيل حتى إنه شك فى أيد صربية . فى هذه الحالة يكون ابن لادن قد

اختطف الفاتورة بالاتفاق مع الأمريكان ، على طريقة فيلم فؤاد المهندس الذى كان يعترف فيه بجرائم لم يرتكبها ، فقط ليظهر شجاعًا فى عين زوجته . وبنفس المنطق صار ابن لادن بطل العالم الإسلامى ، وصارت رغباته أوامر . نحن نعرف هؤلاء القوم حين كانوا فى مصر ، ونعرف أنهم لم يقوموا بعمليات أكثر براعة من تفجير مقهى فى ميدان التحرير ، أو تفجير محطة أتوبيس فى شبرا لتموت طفلة بريئة اسمها شيماء كانت عائدة من المدرسة ، أو ذبح سياح ألمان عزل ، منهم أم احتضنت طفلتها لتحميها فذبحوا الاثنتين .. وقتها قالوا إن من فعل هذا أمن الدولة كى يستأصل الإسلاميين ، وظلت نظرية لا بأس بها إلى أن ظهر الأخ الظواهرى على شاشة الجزيرة ليؤكد أنهم من فعل هذا فعلاً (ثم توقفنا لأننا شعرنا بأن هذا قد قلب الشارع المصرى علينا) .. الطريف أن الشارع العربى ممزق بين قوله إن ابن لادن برئ ولا يستطيع تنفيذ عملية بهذا التعقيد ، وفخره بأن ابن لادن فعلها وانتقم !! أحيانًا تقرأ الرأيين فى المقال ذاته !

ما الذى يفعله الظواهرى حقًا ؟.. لا شىء على الإطلاق سوى إصدار البيانات التلفزيونية والتعليمات للمجاهدين الحقيقيين ، بينما هو لم يطلق طلقة واحدة على إسرائيل . لم أتمالك إلا أن أبتسم عندما كان حزب الله العظيم فى ذروة حربه مع إسرائيل ، عندما راح الظواهرى بوجهه الكئيب وعينيه الميتتين القاسيتين يخاطبهم مستعملاً مصطلحات شيعية الطابع مثل (التقية الاستضعاف) إلخ .. هو لا يطيقهم لكن (اللى تكسب به العب به) .. دعك من سخف ما يقول بينما المجاهدون غارقون فى الدماء والنيران فعلاً ولسان حالهم يقول : « نحن لسنا بحاجة لتعليماتك .. لو كنت تستطيع عمل شىء لمساعدتنا فافعله .. »

الأمر أخطر من هذا لأن كل ما يفعله ويقوله ابن لادن يصب فى النهاية فى مصلحة بوش ، ولن أنسى التوقيت العبقرى الذى اختاره ليلة الانتخابات الأمريكية عندما طالب الأمريكان بألا ينتخبوا بوش .. هكذا صار كيرى هو مرشح ابن لادن ، وصارت النتيجة محتومة ! . كلما شك الناس فى بوش أو عارضوه ظهر ابن لادن على الشاشات ليتهدد الأمريكان ويذكرهم بأنه موجود وخطير .. ولولا الحيطة لقال لهم : « والله لن يقدر علىَّ إلا بوش .. لو رحل لانفردت بكم وخربت بيوتكم .. »

هل كان من الممكن أن تحتل أمريكا العراق لولا أحداث سبتمبر ؟.. لا تقل لى إن الذرائع لن تنقصها من فضلك ، فنحن فى عالم يحب الشكليات والتظاهر بالتحضر ، ولو لم يقدم ابن لادن الذرائع لما استطاع بوش سوى أن يمدد الحصار . إذن مع من يعمل ابن لادن حقًا ؟..

لا نملك أجوبة .. الأجوبة سوف يعرفها ابنى بعون الله ، لكن لو فكرنا فى الأمور منطقيًا لوجدنا أن قصة الستريبس التى ذكرتها فى بداية المقال ليست بعيدة جدًا عن الحقيقة .

جونسون أم دنانة ؟

بقلم د . أحمد خالد توفيق

aktowfik@hotmail.com

يحكون هذه القصة عن (جونسون) الرئيس الأمريكى عندما كان يخوض الانتخابات ليصير حاكم تكساس ضد منافسه حسن السمعة (لى أو دانييل) . بما أن جونسون كان شخصية لا تتورع عن شىء فإنه استعمل أسلوب الحرب القذرة ضد منافسه .. طلب من سكرتيره أن ينشر فى الصحف خبرًا ينفى فيه عن منافسه أنه يضاجع الأبقار ، وأنه ضبط وهو يمارس هذا العمل المشين ! . قال السكرتير فى ذهول :

ـ « لكن أحدًا لم يتهمه بشىء كهذا من قبل ! »

قال جونسون فى بساطة : "وهذا ما نفعله نحن !.. نحن لا نتهمه بل ننفى عنه التهمة !.. فقط أنشر التكذيب ودع الناس يتساءلون .. ودعه هو يؤكد النفى ! »

هذا ذكاء شرير لا شك فيه .. جونسون يعرف أن نفى التهمة لا يدحضها فعلاً ، وإنما سوف يتساءل الناس عن سبب ظهور هذه الإشاعة .. هل هناك ظل من الحقيقة فيها ؟.. لا دخان من دون نار .. هل يعرفون شيئًا لا نعرفه نحن ؟

هذه الطريقة يتبعها الكثيرون بالفطرة .. وهى تتم عبر مراحل ثابتة : عباس لم يختلس العهدة .. وهل هناك من اتهم (عباس) باختلاس العهدة ؟.. لم يقل أحد هذا لذا تنفيه !.. بعدها يثور الكثير من الغبار ويتساءل

الناس : يبدو والله أعلم أنهم يعرفون شيئًا عن كون (عباس) سرق العهدة .. بعد عام أو عامين تبقى ذكرى غامضة حول (عباس) الذى سرق العهدة لكنهم ينكرون ..

لهذا سررت كثيرًا لأن د. محمود جامع نفى صحة ما نشرته صحيفة شهيرة منسوبًا له من إساءات للرئيس الراحل أنور السادات وحرمه . قال فى صحيفة المصرى اليوم إن ما نشر كان دردشة عامة قبل الحوار الصحفى أساء ناشر الحوار استخدامها ، ومن بين ما كذبه ما قيل على لسانه عن استيلاء السيدة جيهان السادات على عقد ماسى قيمته ثلاثة ملايين جنيه .. وقال : « ما نشر يمثل إساءة إلىّ شخصيًا وإلى أسرة الرئيس الراحل أنور السادات » .

أنا لست مولعًا بعصر السادات على الإطلاق ، وأرى أن السادات بدأ كل شيء ما زلنا نعانى منه اليوم على نطاق أكبر ، حتى لأعتقد أن السادات ما زال يحكمنا فعلاً ، لكن هذا شيء والاتهام بالسرقة والكلام عن الأعراض وإدمان المخدرات والخمور والإقامة فى بيتين منفصلين شيء آخر .. بالفعل تمنيت أن ينكر د. جامع هذا الكلام وقد فعل لحسن الحظ مما أثلج صدرى .

دعك من أننا اعتدنا أن نعتبر الدكتور جامع أصدق أصدقاء السادات ، لذا لا تتحمل أن يصدر هذا الكلام عنه هو بالذات .. إن هذا يشرخ شيئًا عزيزًا فى نفوسنا . كلنا نختلف مع موسى صبرى لكن لا ننكر أن الرجل ظل مخلصًا للسادات حتى آخر لحظة من حياته .. حياة موسى صبرى . قد نختلف مع هيكل لكن تذكر أن الرجل ظل متوافقًا مع ماضيه ولم يتهم

عبد الناصر بالدكتاتورية أو التهور أو .. أو .. وبالطبع لم يتهمه فى ذمته المالية ، وأنت تعرف أن هيكل قادر على صياغة عباراته بذكاء واقتدار بحيث يخرج نفسه من أية مسئولية ، لكنه لم يفعل ..

كما تدين تُدان على كل حال ، فقد كنت طالبًا فى المدرسة الثانوية وبرغم هذا كانت أذناى تحمران خجلاً وغيظًا عندما أقرأ بريد القراء فى (أخبار اليوم) ، حيث يتبارى القراء فى اتهام (خالد محيى الدين) والمناضل (إبراهيم شكرى) بكل موبقة فى حياتهما الخاصة ، وكانت أسماء القراء على غرار (محمد أمين بنها) (سيد أحمد الجيزة) .. إلخ .. مما يستحيل التأكد منه . فإما أن القراء لم يعد لهم هدف فى الحياة إلا شتيمة هذين العظيمين العاجزين عن نشر الرد ، وإما أن هذه خطابات لفقها سكرتير التحرير . ثم ظهر النبوى إسماعيل أمام مجلس الشعب ليؤكد أنهم قبضوا على كتاب المعارضة وهم يتناولون البلابيع ويمارسون الشذوذ وأنزلوهم فى الشارع (بلابيص) !.. صفق المجلس كله ، وتساءلت أنا عن سبب تجمع كل هؤلاء المعارضين فى مكان واحد لممارسة الرذيلة .. هل هو عيد جنسى شبيه بـ (ماردى جرا) فى الولايات المتحدة ؟.. عيد جنسى خاص بكتاب المعارضة فقط ؟.. هذا كان يُقال ويُسمح به أيام السادات ، بل كان من وسائل التقرب من الرجل العظيم .. عندما تسمح بأن يُقال هذا عن أعدائك ، فعليك أن تتذكر أن مثل هذا سيقال عنك يومًا ..

أذكر أن رسائل بريدية إلكترونية وصلتنى منذ عامين ، تسخر سخرية بذيئة من مسئول كبير وأسرته .. تضايقت جدًا ورددت الخطاب لصاحبه مصحوبًا

بقدر لا بأس به من السباب .. قلت له : أنت بهذا تضعنى فى موقف عدائى لك على الفور ، وتقوى قضية الطرف الآخر .. اختلف كما تشاء مع سياساته وقراراته وفكره لكن لا تقترب شعرة من بيته وأسرته من فضلك ..

فى نفس الفترة القصيرة سمعنا كلامًا لا يختلف كثيرًا عن إشاعة جونسون إياها ، ومصدرها كاتب صحفى كبير شديد الذكاء ورئيس تحرير مؤسسة صحفية كبرى .. هذا الرجل كما قلت شديد الذكاء وأنا أعتبره ألمع واجهة للنظام حاليًا ، فهو يعرف ما يقول ويعرف كيف يبدل الحقائق ببراعة ، وعندما تراه فى الفضائيات يبدو واثقًا هادئًا يختلف كثيرًا عن أسماء نعرفها جيدًا تزيد الطين بلة . ها هو ذا الرجل يطلق كلمات غامضة مريبة عن (جميلة اسماعيل) الإعلامية الشجاعة الباسلة ، التى أوشكت أن تتحول فى أذهان المصريين إلى (إيزيس) .. حتى لو لم تكن (إيزيس) فأنت يا سيدى الفاضل جعلتها كذلك ، وكل من قرأ كلماتك تعاطف معها بشدة وكسبته إلى صفها . تصدى له بشجاعة الأستاذ (حمدى رزق) فى مقال ملتهب وأعتقد أن حربًا كلامية مروعة ستنشب فى الفترة القادمة .

طريقة التلميح البذيء ضد الإعلامية الشجاعة ذكرنى بالوصف العبقرى لشخصية (دنانة) فى رواية د . علاء الأسوانى (شيكاغو) . (دنانة) من الشخصيات الساحرة فعلاً فى الأدب العربى الحديث ، وهو فى القصة رئيس المبعوثين المصريين بالخارج ومخبر هاو وباحث نصاب ووغد . يصف الأسوانى دنانة بأنه ذو طابع أنثوى لا تخطئه العين من حيث زم شفتيه ، ووضع يده فى وسطه ، وولعه بالثرثرة والنميمة وإلقاء عبارات تحمل أكثر

من معنى . كل هذا جعله أقرب لامرأة متنمرة منه لرجل صارم . هكذا يتشاجر مع زوجته مثلاً فيقلب شفتيه كلما رآها ، أو يمر جوارها فيخبط كفا بكف ، أو يترحم على أمه التى كانت زوجة صالحة . مثلاً يصف حادثًا وقع لإحدى الخريجات فيقول : « الأخت شيماء تعرضت لحادث وأخونا طارق جزاه الله خيرًا يقف الآن خلفها ليواسيها ! » . فهو يجيد هذه العبارات ذات الطابع الكيدى الانثوى والتعبيرات الماكرة التى تقبل أكثر من تفسير .

بصراحة يا سيدى رئيس التحرير الكبير ، أعتقد أن ذكاءك تخلى عنك هذه المرة .. ولئن كنت أنت تتبع طريقة جونسون فى نفى إشاعات لم توجد أصلاً ، أو طريقة دنانة فى الكلام ذى المعنيين ، فإن القارئ ذكى جدًا ويفهم الطريقتين . أما أنا فأكتفى بأن أؤكد أن مقالك هذا لم يُكتب محاباة لأعداء أيمن نور ولا تقربًا للسلطة .. من قال هذا الكلام الفارغ ؟

الصينيون ليسوا قادمين

عم شحاتة سائس السيارات رجل مكافح .. يبدأ يومه بالعناية بسيارات البهوات الواقفة فى الخرابة وتنظيفها واقفًا مشمر الساقين ممسكًا بالدلو والفوطة فى صقيع الصباح ، ثم يرحل آخر البهوات فيصير الصباح كله له كى يعمل فى بناية قريبة تحت الإنشاء ، فيقوم بحمل الطوب إلى الطابق الرابع . أحيانًا يتسلى بتنجيد بعض قطع الأثاث القديمة لزوم جهاز البنت ، وأحيانًا يعمل كبواب يلبى حاجات ربات البيوت العجائز اللاتى يخاطبنه من الشرفات . دعك من أنه فى قريته يربى بعض المواشى لأحدهم .

يقيم عم شحاتة فى عشة صنعها لنفسه من بقايا الورق المقوى والمشمع وأية قطعة خشب وجدها ، وبداخلها تجد فراشًا صغيرًا وجهاز مذياع يخص ماركونى شخصيًا ، وهناك ثلاثة قوالب طوب اتخذها موقدًا يضع عليه عدة الشاى .. نسيت أن أقول إنه يبيع الشاى أحيانًا لكل الحرفيين والمتاجر المحيطة بالخرابة التى تقف فيها سياراته .

فى كل يوم عند العصر يصل (وانج ـ هاو) مندوب المبيعات الصينى حاملاً حقيبته الثقيلة التى ينوء بها كتفاه . ابتسامة قاسية على وجهه الأصفر المجعد المرهق ، ثم يرتمى ليجلس على كومة من قوالب الطوب ، وقد اندهشت للغاية لتلك الصداقة التى تجمع بين رجلين لا يتكلمان أية لغة مشتركة .. لا عربية ولا إنجليزية ولا صينية ، وبرغم هذا هما صديقان حميمان والتفاهم بينهما ممتاز .. يجلس (وانج ـ هاو) بانتظار عم شحاتة كى يعد له كوب الشاى الساخن المجانى غالبًا ، فيرشف منه فى انتشاء .. يبدو أنه لم يبع شيئًا بعد يوم كامل من المشى فى شوارع طنطا المزدحمة الوعرة ..

أين يقيم ؟.. ما الجهة التى يعمل معها ؟.. هو لا يجيب وعم شحاتة لا يعرف . برغم هذا فالرجلان صديقان حميمان . تشعر عندما تراهما من بعيد أنهما يتبادلان حديثًا مهمًا ثم تقترب فتدرك أنهما صامتان يتبادلان الأفكار .

عندما تأملت فى الأمر بدا لى غريبًا جدًا .. هذا الرجل الصينى جاء من الجهة الأخرى من العالم ليعمل مندوب مبيعات فى مدينة صغيرة فى مصر ، ويجلس فى خرابة ليشرب الشاى من كنكة سوداء متسخة أعده له سائس سيارات ..

ما هذا المصير؟.. وما الذى قاده له ؟.. أما عن العلاقة الحميمة بينه وعم شحاتة فسببها مفهوم .. إن بين الرجلين لغة واحدة بليغة هى لغة الشقاء .. يفهمان بعضهما بلا كلمات ..

كان من المفترض أن أشعر بالإعجاب والانبهار بهذا النشاط .. خلية النحل الصينية التى لا تكف عن العمل .. إن الصينيين فى كل مكان من مصر اليوم . لم يعد الأمر يقتصر على تصدير المنتجات بل إن العمالة الصينية تملأ مصر ، ولا أعرف المسئول عن هذا فى بلد يعانى شبابه البطالة أصلاً . بل إن هناك إشاعات عن عرسان صينيين جاءوا ليقضوا على أزمة الزواج عندنا !.. وإن هناك نحو 50 صينيًا تزوجوا مصريات خلال عام 2006 . لو صح هذا لكان الجنون بعينه .. يتقدم الشاب المصرى لفتاة فتطلب كذا وكذا (لأنها مش أقل من عزة بنت خالتها) ثم يتحدثن عن مشكلة العنوسة ويتزوجن وانج هاو !

هناك غزو من آلاف الصينيات على عزبة أم بدوى شمالى شبرا الخيمة ..

خمسة آلاف فتاة صينية تفد على قرية أم بدوى يوميًا ، حتى أن أهالى القرية صاروا يجيدون الصينية تقريبًا .. هناك زحف صينى على الشقق الرخيصة فى امبابة والمنيب .

البائعة الصينية تدق الباب وتغض بصرها قائلة : « السلام عليكم ورحمة الله » ثم تطلب مقابلة ربة البيت وترفض الدخول من دون وجودها ..

كلنا يعرف أن الاقتصاد الصينى ينمو بسرعة غير مسبوقة .. فى إحدى قصص مايكل كرايتون يقول المهندس الأمريكى : « ضيقو الأعين قادمون .. كانوا اليابانيين ثم صاروا الصينيين .. كلهم ضيقو الأعين لا يأخذون إجازة يوم الأحد ولا يهتمون بكرة القدم ! » . مجلة الايكونوميست قالت إن الصين التى يبلغ سكانها ربع سكان العالم ستصل الى الدولة الأولى فى النمو الاقتصادى عام 2020 وسيبلغ حجم ناتجها المحلى 29.6 تريليون دولار ، وهى اليوم تشغل الموقع الثالث بعد اليابان . الصين تنتج ثلثى إنتاج العالم من ماكينات تصوير المستندات وأفران الميكروويف والدى فى دى والأحذية ونصف إنتاج العالم من الملابس وآلات التصوير وخمسى إنتاج العالم من الكمبيوتر المحمول . إن الصين قد فاقت الولايات المتحدة فى تصدير معظم سلع التكنولوجيا حول العالم عام 2004 . لهذا كانت هناك حرب اقتصادية واضحة من الولايات المتحدة ضد هذا العملاق المصر على أن ينمو أكثر .. صحيح أنه ما زال بعيدًا جدًا عن الاقتصاد الأمريكى ، لكن لابد من توجيه ضربات له .. بل إن العديد من المراقبين السياسيين ينظرون إلى الضربة العسكرية على أنها (خيار أخير) لمنع قيام قوة عظمى صينية فى العالم ، وهم يراهنون على

(الشرك التايوانى) الذى قد يؤدى بالصين لضرب تايوان من ثم تضربها الولايات المتحدة وتستريح . هكذا راحت الضربات الاقتصادية تتوالى : موضوع المنتجات الصينية التى تشكل خطورة على الأطفال .. هذه الفضيحة التى أدت لسحب 19 مليون لعبة من الأسواق مؤخراً فيما يعرف بالاسترجاع **Recall** ، لأنها مطلية بمادة سامة تحتوى الرصاص . تذكر أن الصين تورد 80 بالمائة من لعب الأطفال فى العالم اليوم .. ثم جاءت قصة معجون الأسنان الملوث والدهانات السامة والمأكولات البحرية التى أضيفت لها مضادات حيوية . وكانت المنتجات الصينية فى عام 2006 تمثل نصف المنتجات المعيبة التى كشف عنها نظام حماية المستهلكين الأوروبى .

نتيجة لهذا أعدمت بكين رئيس هيئة متابعة سلامة الاغذية والعقاقير للتقصير فى عمله . يجب أن يحمد المسئولون هنا الله على أنهم ليسوا فى الصين .

تصر الصين على توجيه ضربات مضادة من مبدأ المعاملة بالمثل : « الصين ستقوم هى الأخرى بفرض معايير أكثر صرامة بشأن الواردات الغذائية من الولايات المتحدة ". لقد أعادت إرسال شحنة من المشروبات قادمة من الولايات المتحدة بعد ان أظهرت اختبارات أجريت فى شنجهاى وجود نسبة كبيرة بها من الصبغة الحمراء . قررت سلطات الحجر الصحى فى بكين حظر استيراد اللحوم من سبع شركات أمريكية كبرى ، مشيرة إلى أن نتائج الفحوص المعملية على عينات من تلك اللحوم أظهرت أنها « ملوثة » ، مما يشكل خطراً على صحة المستهلكين . فى يوليو 2007

أعلنت سلطات مراقبة الجودة الصينية أنها وجدت بودرة بروتين مستوردة من شركة أمريكية تحتوى على كميات زائدة بشكل كبير من عنصر السيلينيوم .

برغم هذا والكلام للايكونوميست ازدادت الفجوة بين الأغنياء والفقراء . لقد بلغ عدد بليونيرات الصين 106 بليونير ، ويمكن القول أن النمو الاقتصادى لم يحدث فارقًا فى حياة الناس ، فما زالت الصين تشغل المركز 100 فى معدل نصيب الفرد من إجمالى الناتج والمركز 81 على صعيد التنمية البشرية وهى بالتالى دولة نامية على هذا الصعيد . حجم الاقتصاد الصينى ما زال أقل بكثير من نصف حجم الاقتصاد اليابانى (نحو 9 تريليون دولار) ، ناهيك عن الاقتصاد الأمريكى الذى يزيد على 50 تريليون دولار .

الاستنتاج الرئيسى هو أن الصين دولة متقدمة جدًا فى مؤشرات النمو الاقتصادى ، لكنها دولة نامية فى مؤشرات التنمية الاقتصادية والاجتماعية . مشكلة الصين هى أن سياسييها يخلطون بين النمو والتنمية ، وهذا متوقع فى دولة دكتاتورية ..

أنا لا أفهم الاقتصاد جيدًا ، لكننى أفهم منظر (وانج هاو) البائس الجالس يشرب الشاى من يد عم شحاتة .. أقسم بالله أن هذا رجل لا ينتمى لقوة اقتصادية كاسحة ، وبهدلة الأرامل التى تعيشها الزهرات الصينية لا تمت بصلة لرفاهية الفرد .. إن وانج هاو صورة أخرى لعم شحاتة . كلاهما غلبان يجرى على أكل عيشه فى ظروف أقوى منه .. ولهذا لا أرى الصينيين قادمين على المدى البعيد .

هوامش عن الحرب السادسة

-1-

فى اليوم التالى مباشرة لسقوط بغداد ، وجدت عند بائع الصحف جريدة أسبوعية تتصدر صفحتها الأولى صورة عملاقة لوزير الإعلام العراقى (الصحاف) ، وقد كتب تحتها : "الصحاف : رمز الصدق الإعلامي .. » هذه الجريدة لم تعرف بما حدث أمس ولم تجد الوقت لتبدل عناوينها ، ففى الأسابيع التالية تحول الصحاف إلى رمز الكذب والجعجعة الخطابية الفارغة وانضم اسمه إلى اسم (أحمد سعيد) فى مصر ، وصار فقرة للإضحاك فى الكوميديات الفضائية ..

برغم كل شيء فإن ذكرياتى عن الصحاف كانت إيجابية جدًا ، ورأيى انه أدى عمله كأفضل ما يكون .. يسقط الصاروخ الأمريكى فى مكان من بغداد فيكون هناك خلال ربع ساعة غير خائف على حياته من قنبلة لم تنفجر بعد أو غارة تابعة ، ويقدم الحقائق للصحفيين فى ثبات وثقة مع الكثير من المرح .. وكم من مرة وجه ضربات محكمة لأكاذيب آلة الدعاية الأمريكية التى تقودها (فوكس نيوز) و(سى إن إن) .. لقد كان بارعًا بحق حتى اللحظة الأخيرة ، لكن الجيش خذله ..

نفس الشيء ينطبق على صمود العراقيين أمام القوة العظمى فى الكون .. هل نسينا الأسابيع الثلاثة الأولى من الحرب والوقت العصيب الذى منحه العراقيون للأمريكيين ؟.. هل نسينا القتال لمدة عشرة أيام فى ميناء (أم القصر) والهجمات على قوافل المؤن ، وسقوط الأباتشى ، والمدفعية الأرضية التى تصدت لكل صورايخ (كروز) ؟.. هل نسينا المشاجرات

فى البنتاجون ؟.. والاستجوابات التى خاضها رامسفيلد حول (هل وضعتنا فى فيتنام جديدة ؟.. كيف دخلت هذه الحرب من دون قوات برية كافية ؟) .. ملحمة رائعة ساعد فيها أن خطة الدفاع عن العراق وضعها عسكريون محترفون ، بينما سقطت بغداد ذاتها خلال ساعات لأن خطة الدفاع عنها وضعها المحامى (قصى صدام حسين) ، وبما أنه ابن رئيس الجمهورية فقد افترض أن هذا كاف لجعله يجيد الاستراتيجية والسباكة والفن التشكيلى وميكانيكا الكم ..

سقطت بغداد .. وعلى الفور نسى الناس كل شىء وتبخرت كل هذه المقاومة الأسطورية ، فلم يعد أحد يذكر إلا مشاهد الاقتحام والنهب .. ونسى الأمريكان كل اتهاماتهم لرامسفيلد فلم يعد إلا القائد المنتصر ..

قلبى معك يا شيخ (حسن نصر الله) .. فلو أن إرادتك انتصرت واستطعت أن ترهق إسرائيل إلى حد وقف إطلاق النار وتبادل الأسرى ، فلسوف تصير بطل الأمة ويخرس كل منتقديك .. الرجل الذى استطاع أن يقهر إسرائيل بمجموعة من الميليشيات ..

أما لو حطموك ـ لا سمح الله ـ فلسوف يلعنك هؤلاء الذين بحت حناجرهم هتافًا لك اليوم .. وسيذكر لك الناس إنك الرجل الذى تسبب فى دمار لبنان ، وبدد بحماقة النصر الجميل الذى صنعه من قبل .. وسيُقال إنك عميل إيران الذى أنسته الطاعة واجب الحذر .. ووقتها لن يتذكر أحد حرفًا عن قصف حيفا والذعر الإسرائيلى وبطولات قرى الجنوب وقصف البارجة .. بل الأدهى سوف يقال إنك عميل لدى الموساد كلف بمهمة تبرير دخول إسرائيل إلى لبنان ...

ـ 2 ـ

منذ سمعت اسم (حسن نصر الله) للمرة الأولى وقعت فى حبائله ككل من عرفه .. إنه كاريزما تمشى على قدمين ، وعقل متزن ومنطق قوى لا تشوبه شائبة .. فى الوقت نفسه هناك لمحة معينة من المكر اللطيف فى عينيه ، وهى لمحة تشى بأنه لم يتخل بعد عن براءة الطفل بداخله .. هذه البراءة بالذات هى التى تجعله يرفض أنصاف الحلول ، ويحتفظ بدهشته تجاه ألعاب السياسة السخيفة .. الحق واضح لا شك فيه ، والباطل واضح لا شك فيه ، فلم الخلط إذن ؟.. إنه يتصرف بالضبط بالطريقة التى تتصور أنك كنت ستتصرف بها لو كنت تملك القوة ، ولهذا يشعر الإسرائيليون بأن لهجة خطابه مختلفة عن لهجة باقى العرب الذين يتكلمون عن السيف والخيل ولا يستعملونهم ..

هذا الرجل لا يملك أوهامًا ، ولا يشعر بحاجة لتفسير نفسه أو تقديم شهادة حسن سير وسلوك للغرب .. لقد كرر مرارًا إن المجتمع الدولى لا وجود له ، وهو ما يؤمن به كل مواطن عربى ، حتى إن أحدهم سألنى : ما الذى نجنيه من مجلس الأمن والأمم المتحدة ولا عمل لهما إلا إدانتنا وحماية إسرائيل ؟.. لماذا لا تعلن الدول العربية جميعًا انسحابها من هاتين الجمعيتين التمثيليتين ؟.. حسن نصر الله يؤمن بالشىء ذاته ، ويعمل بالضبط وفق بيت أبى القاسم الشابى :

لا عدل إلا أن تعادلت القوى .. وتصادم الإرهاب بالإرهاب

أذكر منذ عدة سنوات أن لبنان قام باستغلال حق مشروع له فى مياه نهر الليطانى ، لكن شارون هدد بأنه سيدمر أية مشاريع مائية تقام على

هذا النهر لأنها تتعدى على حصة إسرائيل من المياه .. رأيت حسن نصر الله فى قناة الجزيرة يقول بعبارات واضحة باردة : أية محاولة إسرائيلية ستقابل برد قاس ، ولن يتأخر هذا الرد أكثر من الوقت الذى تستغرقه مكالمة أجريها على الهاتف المحمول !.. هل تعرف ما حدث ؟.. أعلن (شارون) أن إسرائيل تحتفظ لنفسها بحق الرد فى الزمان والمكان المناسبين !!! وكنت أحسب هذه العبارة مقصورة على العرب فقط ..

الإسرائيليون أذكياء ويعرفون جيدًا أن هذا الرجل لا يطلق التهديدات جزافًا .. ليس صدام حسين الذى وعد بأن ينتحر مغول العصر على أسوار بغداد ، ثم سقطت بغداد نفسها من دون رصاصة واحدة .. ليس الظواهرى الذى فجر قنابل فى مقهى أو فى محطة أتوبيس فى شبرا ليقتل طفلة عائدة من مدرستها ، وذبح بعض السياح الألمان العزل ، ولا يكف عن الكلام عن الكفاح برغم أنه لم يطلق طلقة واحدة على إسرائيل .. وفى العراق يتلخص كفاح القاعدة فى تفجير مزارات الشيعة وذبح الجنود العراقيين .. قد يقول قائل إن الأمريكان هم من يفعل هذا .. إذن لماذا لم تنكر القاعدة ذلك فى بيان واضح يا أخى ؟

الطريف فى الموضوع هو أن الظواهرى قرر أن يدلى بدلوه فى الموضوع .. لا يمكن أن يسمح بكل هذه الشعبية لنصر الله الذى يوشك على التحول إلى بطل العروبة .. لابد من بيان لا معنى له كالعادة ، وعلى الأرجح سوف يفجر محطة مترو فى دولة أوروبية تساند العرب وترفض الحرب .. وسوف يتظاهر بالتحالف مع الشيعة مؤقتًا برغم أنه يراهم ألعن من الصهاينة ..

- 3 -

تذكرنى ملامح (كوندوليزا رايس) بكومبارس مصرية شهيرة جدًا تلعب دائمًا دور فتوة المدبح أو كودية الزار فى الأفلام ، وهذا مع احترامى الشديد للكومبارس لأنها لم تستمتع بقتل المدنيين ، ولم تصف تمزيق الأطفال بأنه (مخاض من أجل شرق أوسط جديد) .. فقط أتساءل ماذا كانت كودية الزار (رايس) ستقول لو كان هؤلاء الأطفال الممزقون فى الصور إسرائيليين .. مش كله مخاض يا وليه ؟ (سامحونى على هذه اللغة السوقية) ..

(بولتون) مندوب أمريكا فى مجلس الأمن بشاربه الأبيض المضحك يقول إن ما فعله حزب الله بإسرائيل لا يمكن مقارنته بما فعلته إسرائيل فى لبنان .. لقد خطف حزب الله جنديين كاملى التسليح وأزعج الإسرائيليين وجلب لهم (الخضة) .. هذه جريمة شنعاء كما ترى لا تتساوى مع تمزيق بعض الأطفال العرب الذين لا قيمة لحياتهم .. والأرقام على كل حال تدل على تقييمهم للأمر .. خمسون إسرائيليًا مقابل أربعمائة عربى .. الإسرائيلى الواحد يساوى ثمانية من العرب وكانوا يودون لو ساوى عشرة ..

رأيت (بوش) بعينيه الضيقتين الغبيتين يقضم قطعة خبز بالكافيار ، وبفم مليء يقول لبلير : « سيكون علينا الاتصال بسوريا لإنهاء هذا الـ Shit .. » ونسى الأحمق أن الميكروفون مفتوح . دعك من بلير الذى يقف مصغيًا لكلمات سيده الحكيمة ، وقد رسم على وجهه تعبيرًا هو خليط من الاهتمام والفروسية والإخلاص من أعماق قلبه . وهو تعبير يجيد تمثيله دائمًا ..

سبحان الله !.. شاهت الوجوه فعلاً .. من النادر أن يجتمع قبح القلوب وقبح الوجوه بهذا الشكل .. كلامك عن (الديموكراسى) يا مستر بوش لم يعد يخدع طفلاً عربيًا ..

لقد انتهت اللعبة ولم تعد هناك أية أوهام .. زال القناع عن وجه الأمريكى القبيح ، وقد حرقت الولايات المتحدة أية جذور مستقبلية لها فى العالم العربى .. حرقت أية مصداقية .. وكما قال أحد الإسرائيليين فى جريدة (ها آرتز) : « لقد قضينا على آخر أمل لنا فى الذوبان فى المنطقة .. صرنا مجرد بلطجى شرس أحمق .. »

قوة الرد الإسرائيلى رفعت الكثير من اللوم عما قام به حسن نصر الله وأعطته شرعية لا بأس بها .. عندما يقذفك طفل بحجر فتقوم بحرقه بالكيروسين ، عندها لن يلوم أحد الطفل على قذفه الحجر .. سوف ينهال اللوم عليك أنت .. وأعتقد أن التراجع النسبى فى موقف مصر والسعودية والأردن سببه بشاعة ما يحدث فى لبنان ، حيث صار لوم الضحية مخاطرة غير محمودة العواقب ..

-4-

قلبى معك يا شيخ (حسن نصر الله) .. أعيش ذلك الكابوس الذى صار متكررًا .. أن ينتهى كل شىء فى ساعات وبلا سابق إنذار ، وأن يذوب حزب الله ونرى الإسرائيليين يملئون الجنوب اللبنانى ، بينما يبحثون عنك ويرجحون أنك فررت إلى سوريا .. رأيت هذا المشهد فى كابول وبغداد ، فليس من حقنا نحن العرب أن نشعر بنشوة النصر أو نتشفى فى أقوى جيش فى المنطقة وهو مرتبك ممزق .. وكما قال د. (جلال أمين) تتعمد الولايات المتحدة فى تكتيكاتها أن تظهر بمظهر المتعثر الذى يلاقى مصاعب فى البداية .. هذا يرفع توقعات الجماهير لدرجة عالية ، من ثم تكون السقطة مضاعفة لهذه التوقعات ، ويكون الإحباط هائلاً .. المطلوب أن يؤمن المواطن العربى أنه لا جدوى ، وأنه لا سبيل لهزيمة هؤلاء .. واحد فقط احتفظ بتفاؤله واحتفظ بيقينه الهادئ .. هذا الواحد ليس مغرورًا واهمًا مثل صدام حسين ، وليس بائع كلام مثل الظواهرى ..

أدعو الله أن تكون مدركًا لما تفعله حقًا يا شيخ حسن ، وأن تكون على قدر الحكمة وبعد النظر الذى توحى به كلماتك وقسماتك .. لقد احتل حزب الله مكانًا عزيزًا فى وجداننا ومن العسير أن يصير هذا المكان خاويًا لا سمح الله .

أسعد أيام هدى

عظيمة هى قناة الجزيرة .. قد نختلف معها ، وقد نراها منحازة لجهات بعينها ومتجاهلة لأمور بعينها ، وقد يتهمها البعض بالعمالة وهى التهمة الجاهزة لوصم كل من نختلف معه .. إن من يختلف معك فكريًا فى العالم العربى هو على الأرجح ملحد أو عميل أو شاذ جنسيًا ، وبما إنه من الصعب اتهام قناة كاملة بالشذوذ الجنسى تبقى تهمة العمالة .. (لم أصدق حتى سمعت بأذنى أن هناك من اتهم منظمة حماس وحزب الله بالعمالة لإسرائيل ، ولا أعرف المنطق اللوذعى الذى قاد لهذه الاستنتاجات العبقرية) ..

أقول إن قناة الجزيرة فتحت نافذة وسط ستار التعتيم الإعلامى الكثيف ، ولولاها لما عرفنا عن الانتفاضة إلا أنها (اضطرابات فى الأرض المحتلة) كما كانت وسائل إعلامنا ستصفها .. وعن طريق قناة الجزيرة رأينا أبا (محمد الدرة) يصرخ متوسلاً للإسرائيليين كى يوقفوا الرصاص ، ورأينا ظهر جثة الرضيعة (إيمان حجو) الذى تحول إلى فجوة دامية كبيرة ، بينما حرصت (سى إن إن) وإعلامنا على إظهار الوجه فقط لأنه لا يعبر إلا عن سلام عميق لرضيعة نائمة ، كأن ما فعله الإسرائيليون هو أن ساعدوا الصغيرة كى تنام فى سلام ..

هذا التفوق الذى حققته الجزيرة فى فلسطين جاء بفضل كتيبة العظماء وليد العمرى وجيفارا البديرى وشيرين أبو عقلة ومن معهم من مخرجين ومصورين وفنيين ..

حظى الأسود جعلنى أفتح قناة الجزيرة يوم الجمعة 9 يونيو لأرى هذا المشهد الرهيب .. الطفلة (هدى) تجرى على رمال الشاطئ وتتعثر وتنهض ، وتصرخ فى جنون وهستيريا : أبويا !

أبوها جثة مفتوحة العينين فوق الرمال ، بينما الفتاة تحتضنه .. لا تعرف السبب الذى جعله فجأة يرفض النطق وتلبية ندائها ربما للمرة الأولى .. لم تجول الكاميرا لترينا ما تبقى من حياة هادئة لأسرة أرادت قضاء يوم على شط البحر فى غزة .. العوامة .. دلو الماء .. الجاروف .. ثم أسرة الفتاة التى تحولت إلى عجين من اللحم المتفحم والدم .. العوامة والجاروف أشياء مدنية جدًا مسالمة جدًا يصعب أن تتلطخ بالدماء إلا فى فيلم (الفك المفترس) لكن إسرائيل فعلتها ..

ما حدث هو أن سفينة حربية إسرائيلية فى عرض البحر قررت أن تمازح هذه الأسرة البريئة بطريقتها .. وكان المذيع يجرى التحقيقات ويصور بينما السفينة ما زالت هناك تراقب الموقف فى استمتاع واضح ..

إن مشاهد الموت فى فلسطين صارت يومية منذ زمن بعيد ، لكن عندما يتعلق الأمر برجال المقاومة وقياداتها فهؤلاء أبطال اختاروا وتحملوا مسئولية قرارهم ، وكل واحد منهم يتوقع اليوم الذى سيتحول فيه إلى أشلاء متفحمة يخرجونها من سيارة انصهر معدنها .. أما تلك الأسرة على الشاطئ فلم تختر شيئًا على الإطلاق .. كل ما أرادوه هو يوم من المرح بين الموج والرمال ، فلابد أن (هدى) الصغيرة صحت صباحًا منتظرة أسعد يوم فى حياتها .. ذات المشهد يذكرنى بمشهد رأيته منذ ثلاث سنوات لذلك الصغير الفلسطينى الذى جلس وحده جوار النافذة فى غرفة نومه يعد ألعابه لعيد الأضحى غدًا ، فكان نصيبه طلقة فى رأسه من قناص إسرائيلى يهوى المزاح بدوره .. ظرفاء وأولاد حظ هؤلاء الإسرائيليون حقًا ..

أسوأ ما فى الأم أن هذه الحوادث صارت كثيرة إلى درجة أنها أذابت

بعضها ونسيت .. عندما تملأ جوالاً بالبيض الهش فإنه يحطم بعضه فلا يبقى شيء ، وإسرائيل تهوى تكديس البيض بحق ..

من أعطى قائد السفينة الحربية هذا الحق ؟.. إنه ليس ربًا ليقتلني بمشيئته كما يقول العظيم (أمل دنقل) .. من أعطاه الحق فى أن يحيل حياة هذه الطفلة إلى كوابيس ؟.. من أعطاه الحق فى أن يملأ حياتى أنا بالكوابيس ؟

ويخرج بيان الحكومة الأمريكية كما هى العادة .. هم فقط يتفننون فى العبارات التى تثير غيظك : "وقال الناطق باسم الخارجية شون ماكورماك إن بلاده تشجع إسرائيل على التفكير فى نتائج هذه الأعمال .. »

يا سلام على التعبيرات العبقرية !.. هذه أعمال أدبية وليست تصريحات سياسية .. لو أحضرت تشيكوف وكافكا وموم وماركيز وشكسبير لصياغة جملة سخيفة تتحسس دربها ولا تجرؤ على أن تقول أى شيء مثل (تشجع إسرائيل على التفكير فى نتائج هذه الأعمال) لاعترفوا بأنهم معدومو الموهبة .. من قبل رأى (بوش) أن قصف غزة بطائرات إف 16 (غير مفيد) .. دعك من التعبير العبقرى الآخر : "نحن نشعر بقلق .. » طيلة الوقت هم قلقون .. ما كل هذا الحلم وهذا التهذيب ؟.. أتمنى للأخ بوش مصيبة تطيح به كي يشفى من عادة القلق نهائيًا ..

رجالنا لا ثمن لدمهم .. نساؤنا لا ثمن لدمهم .. أطفالنا لا ثمن لدمهم ، بينما يبكى هؤلاء الغربيون تأثرًا ويرفعون الأنخاب وتعصر الأخت (أوبرا وينفرى) عينيها تأثرًا بعملية إنقاذ درفيل جنح على ساحل فلوريدا ، مع الكثير من الـ (واو) والـ (ياى) والـ (أوه) .. أى نفاق هذا ؟

السؤال الأهم هو ماذا يعتقد (عباس) أنه يفعله ؟.. يخرج ليتهم أعمال المقاومة بأنها حقيرة ، ويشجب قصف المدنيين الفلسطينيين بلغة عقلانية هادئة .. ما هو دوره بالضبط وهو عاجز عن حماية شعبه ، وعاجز عن الاحتجاج على ما يحدث لشعبه ؟

لابد من أن يدفع هؤلاء الثمن .. أما من يتكلم عن الواقعية والتحضر ويطالب الفلسطينيين بأن يموتوا فى أدب ورقى ، فليخرس من فضله .. لا ثمن لهذا الدم إلا الدم .. لا .. ليس الدم كافيًا .. لو مات ألف إسرائيلى فلن يعوضوا (هدى) الصغيرة عن أبيها ، ولن يعوضوا أم (إيمان حجو) عن رضيعتها ..لكنه أقل شيء ممكن لو كانت هناك عدالة حقًا فى هذا العالم .



نبع الآداب والثقافة المعاصرة

سلسلة 1
مقالات

د. أحمد خالد توفيق

لعلك قرأت بعض هذه المقالات ، ولعلك قرأتها كلها . لكن اجتماعها فى كتاب واحد يعطيك نظرة أشمل ، وأعمق .

قد يروق لك هذا الكتاب ، وقد يبرهن على أننى حسن الظن فى نفسى أكثر من اللازم ، ولكنى فى جميع الأحوال أعدك بشىء واحد ؛ هذه مقالات صادقة تمامًا ؛ لم أكتبها طلبًا للمادة ، أو نفاقًا لمسئول ، أو دفاعًا عن جهة ما ..

عندما حاول بعض المحيطين بعبد الناصر أن يوغروا صدره على العظيم (أحمد بهاء الدين) ، قال لهم : اتركوه ؛ نحن راقبناه ، وندرك أنه لا علاقة له بأحد .. هذا رجل (دماغه كده) ..

(دماغى كده) .. عنوان مناسب جدًا لهذه المقالات .. فقط هناك شخص واحد كتبت وهو فى ذهنى ، ويهمنى بالطبع رضاه والفوز باحترامه - إن لم يكن بحبه - ويغرينى بممارسة تلك اللعبة المعقدة ؛ بين قول ما أريد قوله ، وكتابة ما يريد قراءته ؛ فلا أتورط فى أسلوب (ما يطلبه المستمعون) ، أو أمارس الاستفزاز المجانى لمجرد التميز .. وهذا الشخص هو القادر على جعلى أتردد ، أو أراجع دماغى هذه .. وهو الوحيد الذى أدين له بكل شىء : القارئ .





الثمن فى مصر 10 ج
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم